تَدْقِيقُ النَّظَرِ

في أصول

التَّوَسُّلِ وَالإِسْتِغَاثَةِ

جمع وترتيب
السيد الداعية
موسى الكاظم بن جعفر السقاف

تَدْقِيقُ النَّظَرِ

في أصول

التَّوَسُّلِ وَالإِسْتِغَاثَةِ

تَدْقِيقُ النَّظَرِ

في أصول

التَّوَسُّلِ وَالإِسْتِغَاثَةِ

جمع وترتيب
السيد الداعية
موسى الكاظم بن جعفر السقاف

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

توزيع

دار الفقيه للنشر والتوزيع

أبوظبي هاتف : ٦٦٧٨٩٢٠ ٩٧١٢+ ، فاكس ٦٦٧٨٩٢١ ٩٧١٢+

دبي جوال : ٤٧٨٥٢٢٣ ٩٧١٥٠+

اليمن تريم - تلفاكس : ٤١٦٩٦٧ ٩٦٧٥+

جوال : ٧٧٧٤١٧٥٠٠ ٩٦٧+ ، ٧٧٧٤١٥٠٨١ ٩٦٧+

تصميم الغلاف

المساوى للدعاية والإعلان - 777339345 967+

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾

صدق الله العظيم . سورة المائدة آية ٣٥

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي لا معبودَ بحقٍ في الوجود سواه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، العبد المحض الخالص الأوّاه، وعلى آله وصحبه ومن تبعه ووالاه، الرسول الذي أعطاه مولاه ما أعطاه وحباه ما حباه، قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]، قال في الجلالين: ((ولم يذكر المُوحَى تفخيما لشأنه)). اهـ فسبحانه جل جلاله الذي خص نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بما لا يشاركه فيه أحدٌ عداه. وسمعتُ أحد أهل العلم نفعنا الله به أكمل الانتفاع يقول: إن ترقيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في النفس الواحد لا تحيط به عقول المخلوقين؛ لأن ثواب جميع الطاعات التي يعملها المسلمون يكون في صحيفته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مضاعفاً بدليل قوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**الدَّال على الخير كفاعله**)) رواه البزار مختصراً ورواه مسلم ولفظه ((**من دل على خير فله مثل أجر عامله**)) وهناك روايات أخرى بألفاظ متعددةٍ لأبي داود والترمذي وابن حبان والطبراني في الكبير والأوسط ذكرها الإمام المنذري في (الترغيب والترهيب).

فحمداً لرب خصنا بمحمدٍ — وأخرجنا من ظلمةٍ ودياجرِ
إلى نورِ إسلام وعلم وحكمة — ويُمْنٍ وإيمانٍ وخير الأوامرِ

((وخير الأوَامِرِ)) التوحيد العظيم الذي علمنا إيَّاهُ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في قوله: ((**أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ..**)) متفق عليه من حديث أبي هريرة. وسمعتُ أحد العلماء نفعنا الله به أكمل الانتفاع في الدنيا والآخرة عند ذكر هذا الحديث يقول: ((الله هو الموجدُ الذي أوجد كل موجود، وقد قال سيدُ الوجود وهو يخاطب أهل العقول وينبه أهل الجمود ويحركهم بكلامه

العذب المورود داعياً لهم لترك هذا الجمود والانتباه للقصد والمقصود وأن يعْبروا من الوجود للموجود، وقال في إعلانه الشريف وخطابه المنيف، وإعلانه ذلك داع من دواعي التشريف، فيما جاء في الصحيحين أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمة لبيد — أسمعنا يا حبيب الله كلمة لبيد فسماعها منك أحلى وكلمة لبيد اكتسبت حلةَ فخرٍ منْ نطق سيدنا محمد بها قال إمام التوحيد: ((**ألا كل شيء ما خلا الله باطل**))اهـ .

فهذا التوحيد الذي غرسه النبيُ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في قلوب المسلمين عامة وأهل جزيرة العرب خاصة محفوظٌ من أي شيء يخدشه أو يمسُّهُ لقوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**إنّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب لكن في التحريش بينهم**)) رواه مسلم واللفظ له ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه. ويستأنس هنا بحديث الحاكم وفي آخره قال: ((**يا شدَّاد إنهم لا يعبدون شمساً ولا وثناً ولا حجراً ولكن يراءون الناس بأعمالهم...**)) وفي إسناده عبد الواحد بن زيد متروك ويستأنس أيضاً بحديث ابن ماجه من رواية روَّاد بن الجراح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية**)) قال الإمام المنذري رضي الله عنه وفيه عامر بن عبد الله: لا يُعْرَف اهـ، قلتُ ورَوَّاد[1] أيضا مُخْتَلفٌ فِيهِ خصوصاً في ما يرويه عن سفيان الثوري. وباقي رواته ثقات كما هو معلوم اهـ.

فبهذه الأحاديث وغيرها يعرف المسلم أنه يستحيل شرعاً أن يصدر الشرك من المصلين بجزيرة العرب — نعم قد يوجد الكفر أو الردة والعياذ بالله سبحانه وتعالى، أما أن يتخذ المصلون في جزيرة العرب خاصة (للتنصيص عليها في الحديث) شريكاً من دون الله فذلك مستحيل شرعاً؛ لأنه يناقض حديث النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم المتقدم ذِكْرُه الذي رواه الإمام مسلم رضي الله عنه، وبذلك يعلم أن من وافق عمله عمل أهل جزيرة العرب عقيدة وعملا فحكمه حكمهم .

---

(١) وهو روَّاد بن الجراح العسقلاني انظر ترجمته في تهذيب التهذيب جـ٣ صـ٢٤٩ .

وبما تقدم ذكره وبما سيأتي سيعرف طالب الحق المنصف أن مسألة ((الاستغاثة[١]) بالأنبياء والصلحاء والتي يقول بعض الناس - هداهم الله سبحانه وتعالى - أنها شرك أو كفر، لا يوجد فيها أي ذرة من الشرك - طالما أن المسلمين يعتقدون أن النافع والضار هو الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء - لأن الأدلة التي يحتج بها البعض لمنعها، لا يصح الاستدلال بها كما ذكر ذلك علماء أهل السنة والجماعة رضي الله عنهم - وسيأتي بيانه - ولأن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أمرنا بها كما سيأتي توضيحه بل قد ورد في الأخبار فعل الصحابة لها وكثير من خيار الأمة بها لا يدع مجالاً للشك عند طالب الحق المنصف في أنها لا تمسُّ أيَّ مساسٍ بصرح التوحيد الشامخ الذي بناه وشيَّده النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في قلوب المسلمين، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بما أكرم به الدعاة المخلصين والورثة الكاملين من خير الدارين وأحبابنا ومشايخنا في خير وعافية، وأن ينفعنا بما علمنا ويرزقنا العمل بما علمنا، ويعلمنا من لدنه علما إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين... وبعد:

فهذه رسالة في تبيين حقيقة ((الاستغاثة[٢]) وتفصيل أدلتها وكشف القناع عن شبهها، رتبتها على هذه الكيفية:

١- المقدمة.

---

(١) وكذا التوسل والاستعانة والتشفع والتوجه.

(٢) فالاستغاثة لغة: طلب الغوث وتارة يطلب الغوث من خالقه وهو الله تعالى وحده كقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٩]، وتارة يطلب ممن يصح إسناده إليه على سبيل الكسب ومن هذا النوع الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي هذين القسمين تعدى الفعل تارة بنفسه كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وتارة بحرف الجر كما في كلام النحاة في المستغاث به ، وفي كتاب سيبويه رحمه الله تعالى : فاستغاث بهم ليشتروا له كليباً - فيصح أن يقال استغثت النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستغثت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى واحد ..) اهـ التأمل للحميري. وقال صاحب كتاب (شواهد الحق) ((... والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى والنبي صلى الله عليه وآله وسلم واسطة بينه وبين المستغيث فهو سبحانه وتعالى مستغاث به والغوث منه خلقاً وإيجاداً والنبي مستغاث والغوث منه سببا وكسبا ومستغاث به مجازا وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو سببا وكسبا أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعاً ..)) اهـ صـ١٠٣.

٢- ذكر بعض الآيات التي أنزلت في الكفار والمشركين، وحمل البعض لها على جمهور المسلمين وإبطال ذلك وكذا بعض الشبه التي فهمها أولئك الأقوام على غير معناها الحقيقي.

٣- أدلة أهل السنة والجماعة على جواز الاستغاثة.

٤- بعض الأدلة العقلية والاستئناسات التي يفهم منها الإنسان الخالي من الهوى صحة طريق أهل السنة والجماعة.

٥- الخاتمة.

◘ ◘ ◘

المقدمة

اعلم يا أخي – هدانا الله وإياك إلى الصراط المستقيم – أن عقيدة أهل السنة والجماعة محفوظة من كل ما يخدشها من الشرك حسب ما سيأتي من ذكر أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبفضل رعاية العلماء رضي الله عنهم واعتنائهم برد كل ما يحدث من جديد يخالف العقيدة الصحيحة التي مشى عليها الصحابة والتابعون ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

ولكن إذا طرأ على الإنسان مفهومٌ جديد واقتنع به صعب بعد ذلك زوال ذلك المفهوم عنه وإن كان خطأً، وهذا من طبيعة البشر وكما قال القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ولذلك تجد بعض الناس عند ما يقرأ الآيات التي أنزلت في الكفار، أو يسمع بعض المتعصبين وهو ينزِّلُها على من توسل أو استغاث، تدخل عقله، ويعتقد أن ذلك هو الحق؛ لأن ظاهر الآية قد ينطبق تماماً في نظر الخالي عن العلم على نحو المتوسلين فترى البعض من هؤلاء الأقوام – هداهم الله تعالى – يقول لبعض العوام: إن هؤلاء الذين يستغيثون ويتوسلون بأصحاب القبور إذا سألتهم عن سبب ذلك يقول: أنا أعبد الله تعالى المحيي المميت، وإنما أتقرب إلى الله تعالى بواسطة هذا الولي، ثم يقول له أيضاً: وأنت إذا نظرت يا أخي إلى الكفار تجدهم قالوا نفس كلام هؤلاء المستغيثين والمتوسلين، فقد حكى الله عنهم في القرآن في سورة الزمر أنهم كانوا يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فترى الكلام في ظاهره مطابقاً تماماً لما يقوله ذلك الشخص لكن ينسى ذلك الرجل أولاً أن معنى قوله تعالى: ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾ **أنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم الألوهية والربوبية فيعبدونها، وينسى الفرق الهائل الكبير بين الاستغاثة والعبادة وبين**

التوسل بالشيء وبين عبادته، وينسى ثانياً أنْ يكمل الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فانظر كيف كذَّبهم الله تعالى مباشرة بعد كذِبهم بأنهم إنما يعبدون تلك الأصنام لكي تقربهم إلى الله تعالى... إلى غير ذلك من أوجه بطلان دعواهم هذه التي ستأتي بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

ولهذا تجد أن ظاهر هذه الآيات قد يستسيغها الإنسان الجاهل ويسهل عليه تصديقها ويعتقد أن هذا هو الحق تماماً خاصة مع كثرة الداعين إلى مثل هذه الأشياء التي يتوصل بواسطتها إلى تكفير المسلمين وتشريكهم، فيعتقد العامي أن هذا هو الحق لأن أمامه آيات تتلى وأحاديث تقرأ دون أن يفسرَ أحدٌ له تلك الآيات أو يوضّح له معاني تلك الأحاديث وما يعارضها. وهكذا يمر الزمان.. فإذا جاء أحدٌ من دعاة أهل السنة والجماعة ليشرح له هذا الإشكال، ويوضح له ذلك التعارض ويحذره من مغبة تشريك الأمة ورميها بالضلال ينفر من ذلك ويصعب عليه تصديق كلام الداعي الجديد كيف وقد أدخلت في رأسه وعقله تلك الآيات- بمفاهيمهم الخاطئة فيها- على أنها هي العقيدة الصحيحة؟! وأن ما سواها هو الشرك الأكبر الذي يخلد صاحبه في نار جهنم إذا مات على تلك العقيدة فتصعب المهمة أمام الداعي والمدعو، ولكن من سبقت له من الله الهداية عاد إلى حظيرة أهل السنة والجماعة، وإلا فإن غالب من دخلت رأسه هذه العقيدة وتمكنت من قلبه فإن إعادته إلى حظيرة أهل السنة والجماعة مهمة صعبة جداً، ولكنَّ الله يرحم من عباده الرحماء، فارحم يا أخي كثيراً من إخوانك الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله— ولكن أُشْرِبَتْ قلوبهم هذه العقيدة- وادعهم إلى طريق الصواب، وادعُ لهم إذا خلوت في جنح الظلام تناجي الملك العلام أن يعينهم الله على التغلب على ما وقر في صدورهم مما يخالف الحق، وأخبِرهم بأن التعصب على التمسك بهذه الفكرة ليس بالأمر الهين فربما أوْدى بذلك الإنسان إلى الوفاة على غير لا إله إلا الله — والعياذ بالله سبحانه وتعالى — وتمعَّن في أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم علَّمَنَا حرمة المؤمن العظمى وإثمنا الشديدَ عندما نَبْهَتُه بعيب ليس فيه فقال كما روى الإمام الطبراني رضي الله عنه بإسنادٍ جيد: ((من

ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد ما قال فيه)) فإذا كان هذا يا أخي فيمن بَهَت مسلما بعيب، فكيف بمن يبهت جميع من لا يوافقه على الفكرة الخاطئة التي يحملها والتي نشأت من عدم ارتباطه بالعلماء الحقيقيِّين العدول، لا علماء السوء - والعياذ بالله - فتفكر يا أخي ببصيرة منيرة إن كنت تريدُ معرفة الحقِّ ومناصرة أهله، والابتعاد عن الباطل والبدع والأهواء ومحاربة أهلها لله تعالى لا محاربتهم وبغضهم لذواتهم ما داموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإنما للأعمال التي يرتكبونها ولا تكون على الكتاب والسنة، وانطواء بواطنهم على السوء والبغض والتحقير للمسلمين وبهذا ترحمهم.

وانظر إلى المصيبة التي أصيب بها المسلمون من جرّاء هذه التكفيرات والتبديعات، فتوجه إلى الله تعالى أن يرفع من صفوف الأمة ما حلَّ بها من كل ما لا يرضى المولى سبحانه وتعالى من تفرقة للمسلمين بل لأهل المسجد الواحد على أمور بعضها مجمع عليها ولكن دخلت على المسلمين الدواخل بسبب فتن آخر الزمان الموعود بها في أحاديث[1] النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتيقن يا أخي أنه من المستحيل أن يمر الزمان هكذا يلعن آخر هذه الأمة أولَها، بل لا بد أن يُظهر اللهُ الحق.

واعلم أن ما قبل عصر ابن تيمية هم من الأوائل بل من خيارهم، فكيف يكونون على الشر؟ بل وأبشع منه وهو الشرك ! والرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم شهد لهم بالخيرية كما في الحديث الصحيح ((**خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...**)) الحديث أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة)، فانظر تراجمهم تعرف توسلاتهم وفقههم وفهمهم لهذه المسألة، ولا تكتف بأن تسمع من بعض الناس بأن الاستغاثة لم يفعلها الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم ولكن انظر تراجم الصالحين والكتب التي يترجم فيها للعلماء وتفكر في استغاثاتهم أتكون شركاً؟! وكيف ينقل العلماء هذا الشرك ولا ينكرونه؟! مع خطورته وورعهم، ومن أمثلة ذلك ما قاله

---

(١) وذلك مثل حديث حذيفة الطويل الذي أخرجه البخاري في كتاب الفتن وفيه ذكر: ((**ظهور دُعَاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها....**)) الحديث .

الذهبي في (سير أعلام النبلاء) عن سيدنا معروف الكرخي رضي الله عنه: ((أن قبر معروف ترياق مجرب))، فما معنى هذه العبارة ؟ وأين هي من قول بعض الناس أن نداء الأموات والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم شرك أكبر، فسبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

□ □ □

الفصل الأول

في ذكر بعض الآيات التي أنزلت في المشركين وحملها أولئك الأقوام على جمهور المسلمين وإبطال ذلك وكذا بعض الشُّبه الأخرى

قال العلماء - نفعنا الله بهم- : ((إن هؤلاء الأقوام هداهم الله لجأوا إلى الآيات التي أنزلت (في المشركين وكفار مكة) وحملوها على جمهور المسلمين وهذا هو حال الخوارج كما قال ابن عمر. فقد ذكر البخاري في الصحيح في كتاب (استتابة المرتدين والمعاندين) قال: ((وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في المشركين والكفار فجعلوها على المؤمنين)). اهـ

- ووجه الشّبهة الواقعة في هذه الآيات التي يغرُّون بها العوام أنهم يقولون إن المشركين يؤمنون بالله وإنه الذي خلق السموات والأرض إلى غير ذلك مما صرحت به الآيات ومع ذلك هم يعبدون الأصنام ويؤلهونها من دون الله فيشبه الطرف المعارض المسلمين الذين يؤمنون بالتوسل والاستغاثة وهم أيضاً يؤمنون بالله بأولئك الكفار فكيف نفرق بين الطرفين ؟

والجواب: من أوجه

(١) **الوجه الأول**: أن إيمان الكفار بالله تعالى لا ينفع مع كفرهم بأمور الإيمان الأخرى من الحوض والجنة والنار والصراط واليوم الآخر وإنكارهم البعث فمثلهم كمثل الشيطان الذي هو مؤمن بالله وكمثل اليهود والنصارى يؤمنون بالله فلم ينفعهم ذلك الإيمان بشيء اهـ .

(٢) **الوجه الثاني**: أن الكفار مع إيمانهم بالله تعالى أضيف إليه تأليههم للأصنام واتخاذها آلهة كما قال تعالى في سورة (ص): ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾[ص: ٥]، ولم يفعل المسلمون الذين يؤمنون بالتوسل والاستغاثة شيئاً من ذلك التأليه ونحوه .

(٣) **الوجه الثالث**: أن الكفار الذين يؤلهون الأصنام يعتقدون أيضاً أنها تنفع وتضر من دون الله وأما المسلمون الذين يتوسلون ويستغيثون فإنهم يعتقدون في الأولياء

والصالحين حسن ظن منهم إنهم أقرب إلى الله منهم فقط وليسوا بآلهة ولا ينفعون ولا يضرون من دون الله تعالى فَحَمَلَهُم حسنُ ظنهم هذا فيهم إنهم يتوسلون بهم إلى الله وفرق بين الطرفين كما بين السماء والأرض اهـ .

قال العلماء - رضي الله عنهم-: وهذا الاستدلال بهذه الآيات على منع الاستغاثة وتشريك الأمة غير صحيح ولا يجوز شرعاً؛ لأن الآيات التي يوردها أولئك الأقوام على من استغاث أو توسل من جماهير المسلمين لا تزيد على خمسين آية من مجموع الآيات التي أنزلت في الكفار والمشركين ونحوهم والتي يزيد عددها على مائة وإحدى وتسعين آية، فلا يجوز أن تحمل تلك الآيات الخمسون ونحوها على جمهور المسلمين؛ لأن ظاهرها يوهم العامي أنها أنزلت ترد ما يفعله المسلمون من الاستغاثة والتوسل ونحوها وتُترك الآيات الأخرى التي تدحض أن يكون هناك أي تشابه أو تماثل أو تقارب بين الفريقين، يُجوِّز لهم أن ينزلوا تلك الآيات على المستغيثين أو المتوسلين من المسلمين.

ومن تلك الآيات التي أنزلت في كفار قريش ونحوهم ولا يستطيع أولئك الأقوام أن ينزلوها على المستغيثين أو المتوسلين لأنها تدحض دعواهم وتردها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧-٥٩] وغير ذلك من الآيات.

فهل ترى بأي دليل أم بأي تفسير حُملت تلك الآيات على المسلمين التي ظاهرها أن الكفار إنما يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله وتُركت هذه الآيات المذكورة آنفاً من حملها على المسلمين مع أن كل تلك الآيات قد أنزلت في كفار قريش، فإن قال قائل: إنما

حملت الآيات التي وافقت ما يعمله المسلمون من الاستغاثة والشرك وما لم توافق ما يفعله المسلمون من الكفر باليوم الآخر ووأد البنات ونحوهما لم أحمله عليهم.

فالجواب: أن ما اعتقدته شركاً إنما هو في خيالك فقط وفي نظرك الذي لم يتسع ومن عدم اطلاعك على كتب الأئمة وكلام أهل العلم؛ لأن هذا الذي يعمله المسلمون من الاستغاثة ونحوها قد وردت فيها أحاديث صحيحة من فعل الصحابة والتابعين وعملها العلماء الأبرار بل ومن تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لأمته وذلك كما في حديث الأعمى فكيف يكون شركاً؟!.

ومن عدم فهم هذه الآيات وعدم الرجوع إلى العلماء الثقات قال بعض المتعصبين[1] إن أولئك الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر أفضل من المستغيثين؛ لأن أولئك الكفار مع الشدة يلجئون إلى الله، وهؤلاء المستغيثون والمتوسلون يلجئون إلى أصحاب القبور. فهل يعتقد هؤلاء الناس أن كفار قريش كأبي جهل وأبي لهب وشيبة وعتبة ابني ربيعة وسواهم من أئمة الكفر، أفضل من ابن حجر العسقلاني والنووي والقرطبي والبكري والشعراني وغيرهم من أعلام أهل السنة والجماعة الذين نقلت لنا استغاثاتهم أو نقلوا استغاثات غيرهم وأقروهم عليها؟! كما سيأتي فهل يستطيع مسلم أن يقول هذا ؟ نعوذ بالله من الجرأة على أئمة الدين ومن الفهم السقيم.

ومن تلك الآيات التي استدل بها أولئك الأقوام على أن أولئك الكفار مؤمنون بالله وبذلك هم موحدون توحيد ربوبية الذي هو اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

---

(١) قال هذا الكلام المُرّ أحمد القطان، ومحمد الزين في كتاب (موعظة المؤمنين)، ويُردّدُ هذا الكلام بعضُ أتباعهم مسجل بأصواتهم في أشرطة الكاسيت المنتشرة في محلات التسجيلات.

﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] وغيرها من الآيات.

والجواب: إن هذا لا يُطْلَقُ عليه إيمانٌ إطلاقاً حتى يستدل به على وجود توحيد ربوبية عند هؤلاء الكفار، وإنما كانوا يقولون ذلك عندما تفحمهم الحجة من النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بوجود الله واستحقاقه للعبودية. قال السيد حسن السقاف في كتابه (التنديد): ((فلما كان النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يثبت لهم وجودَ الله ووحدانيته وأن لا إله إلا هو سبحانه ويلزمهم بترك عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها ويسجدون لها من دون الله كانوا يتحرَّجون ولا يدرون بماذا يجيبون فكانوا يقولون عند سؤال النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لهم: من خلق السماوات والأرض؟ الله، وكانوا يتحجَّجُون بأنهم ما يعبدون هذه الأصنام إلا لتقربهم إلى الله زلفى، ودعواهم هذه باطلة؛ لأن الله كذبهم بعدها مباشرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]))اهـ.

وسمعت أحد العلماء نفعنا الله به أكمل الانتفاع في الدنيا والآخرة يقول: ((إن هؤلاء الكفار لم يشرع الله لهم التقرب إليه بعبادة هذه الأصنام فكيف يتقربون إليه بشيء لم يشرعه لهم؟ بل نهاهم عنه وأرسل نبيَّهُ لإبطالها فبذلك تعرف كذبهم في ادعائهم أنهم ما يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله)) اهـ.

ومن أوجه بطلان دعواهم هذه أيضاً أن هؤلاء الكفار صرحوا بأنهم يعبدون هذه الأصنام – فيعتقدونها آلهة وأرباباً – أما المسلمون فإنهم لا يعبدون النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عندما يتوسلون به بل هذا شيء شرعه الله سبحانه وتعالى لهم، وكذلك لا يعبدون الأنبياء ولا الأولياء عندما يستغيثون أو يتوسلون بهم ولا يعتقدونهم آلهة ولا أرباباً بل عباد مكرمون، ومما يثبت أن هذا الإيمان الذي يوجد عند الكفار إنما هو صورة إيمان فقط، وأنه لا يكون إيماناً حقيقياً حتى يتبع بالعبودية لله تعالى وامتثال أوامره قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [الزمر: ٣٨] الآية فانظر كيف أنكر المولى سبحانه وتعالى عليهم حين سألهم: ﴿مَّنْ

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ قولهم ﴿ٱللَّهُ﴾ وقال لهم على لسان نبيه ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الإمام ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: ((يعني المشركون كانوا يعترفون أن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ وبعد أن ذكر كلاماً لا يُحتاج إليه هنا، قال: والمعنى بعد ما تحققتم أن خالق العالم العلوي والسفلي هو الله تعالى فاخبروني عن آلهتكم، إن أرادني الله بضر هل هن يكشفن عني ذلك الضرر والبلاء ويدفعنه — أي لا تقدر على دفعه وإزالته)) اهـ. فانظر كيف أنكر المولى تعالى عليهم في كل تلك الآيات ادعاء الإيمان به مع عبادتهم الأصنام؟

وبهذا تعرف أن صورة الإيمان الموجودة عند الكفار لا يصح أن يطلق عليها إيمان وأنه مثل إيمان المتوسلين[1] والمستغيثين؛ لأن إيمان المتوسلين ونحوهم من المسلمين إيمان حقيقي بالله تعالى؛ ولأن صورة ذلك الإيمان توجد عند جمهور الخلائق ولا يختص به كفار مكة فقط فقد قال الفخر الرازي رحمه الله في الجزء السادس والعشرين من (تفسيره الكبير) عند قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]: ((واعلم أن من الناس من قال أن العلم بوجود الإله القادر الحكيم متفق عليه بين جمهور الخلائق وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم)) اهـ.. الخ ما قال. وقال الشيخ الصابوني في المصدر المذكور سابقاً عند قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] أي خلقهن الله لوضوح الدليل على اختصاصه بالخالقية الذي يشير إلى إن الإيمان الفطري مغروس في جبلّة الإنسان كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

---

(١) بل قال بعض المتعصبين إنه خير من إيمان المتوسلين من المسلمين، سبحانك هذا بهتان عظيم.

[الروم: ٣٠] وقال عليه الصلاة والسلام: ((**كل مولود يولد على الفطرة**))[١]) اهـ فهل يعتقد أولئك الأقوام أن الطوائف الكافرة الأخرى من عبدة الأبقار والنار والأشجار (بل والملاحدة) مثل كفار قريش أيضا موحدون توحيد ربوبية ؟ وذلك لأن العلم بوجود الإله القادر الحكيم متفق عليه بين جمهور الخلائق كما تم نقله عن الإمام الرازي رحمه الله، وهم بذلك أفضل من المسلمين المتوسلين! فهل يقول بهذا مسلم عاقل؟!!.

وبهذا تعرف أن ذلك الإيمان الذي لا يختص بكفار قريش فقط بل هو موجود عند جميع الكفرة المرسل إليهم وغيرهم على قول من قال به والذي هو فطري لا ينكره إلا معاند — هدانا الله بفضله — لا يصح الاستدلال به على أن هؤلاء الكفرة بصورة ذلك الإيمان عندهم توحيد الربوبية؛ لأنه لا يطلق عليه إيمان إلا من حيث اللغة فقط وقد حقق هذا الإمامُ المجمع على فضله وتقدمه في العلوم محيي الدين النووي نفعنا الله به وبسائر العلماء والورثة في (شرح مسلم)[٢]: ((فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمناً بالإطلاق[٣] وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمناً بالتصديق فذلك غير مستحق في كلام الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته)).اهـ كلام النووي.

فإذا نظرت إلى التفصيل السابق تجد أن أسوأهم حالاً هو أفضل من كفار قريش،

---

(١) رواه البخاري وغيره. وتمام الحديث ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)).

(٢) شرح مسلم ١/ ١٤٧.

(٣) وهو محمول على ما إذا تركها جحوداً.

ومع ذلك لا يستحق اسم الإيمان، فكيف يستحقه هؤلاء الكفار الذين على افتراض أنهم أقروا بلسانهم فإنهم يكذبون بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وباليوم الآخر ويجحدون أسمائه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠] قال الشيخ الصابوني في (مختصر ابن كثير): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن ولا يُقِرُّون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله: بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم... الخ اهـ والحديث في البخاري.

وبهذا تعرف أن هؤلاء الكفار كانوا يقولون (الله) إذا سئلوا عن خلق السموات والأرض؛ لأن الحجة تفحمهم فلا يدرون ماذا يقولون كما تقدم ذكره.

إذا علمنا مما تقدم تقريره - من أن ذلك الإيمان الموجود عند أولئك الكفرة والذي هو صورة إيمان فقط أو هو إيمان من حيث اللغة فقط كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى إذا علمنا ذلك نقول إنه لا يجوز بذلك الإيمان اللغوي الذي لا يترتب عليه شيء لا في الدنيا من حيث الأحكام ولا في الآخرة من حيث النجاة من العذاب، وأنه لا يجوز ولا يصح من أولئك الأقوام ولا من غيرهم أن يقسّموا التوحيد الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى: توحيد ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات بلا دليل شرعي وقد ألف السيد حسن السقاف الأردني رسالة سماها (التنديد بمن عدَّد التوحيد) أنكر فيها بالأدلة الشرعية تقسيم التوحيد إلى هذه الثلاثة الأقسام وقال: ((إن التوحيد الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم هو توحيد واحد فقط وهذه التقسيمات محدثة ومبتدعة في الدين)).

ومن ثم قال سيدي العلامة الفقيه المحقق المتفنن، محمد بن سالم بن حفيظ رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به في كتابه: (الوسيلة) رداً أيضاً على من قسم التوحيد: ((والحاصل أن القرآن ملآنٌ من تسمية الرب إلها، والإله رباً فهما بمعنى واحد، فالمشرك لابد أن يشرك بالربوبية ولا يعبد الله ويعبد تلك الأرباب الباطلة، والدليل على هذا أن

كلمة (لا إله إلا الله) هو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولو كان توحيد الألوهية كما يقولون لاقتضى أن لتوحيد الربوبية كلمة أخرى غير هذه ولا قائل بذلك)) اهـ وقال السيد أحمد زيني دحلان رحمه الله في كتابه (الدرر السنية) ما يلي: ((وأما جعلهم التوحيد نوعين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، فباطل أيضاً، فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢] ولم يقل ألست بإلهكم؟ فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية، ومن المعلوم أن من أقر لله بالربوبية فقد أقر لله بالألوهية، إذ ليس الرَّبُ غير الإله بل هو الإله بعينه، وفي الحديث إنّ الملكين يسألان العبد في قبره فيقولان له من ربك؟ ولم يقولا له من إلهك؟ فدل على أن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية)). ثم قال بعد ذلك: ((فهل سمع المسلمون في الأحاديث والسير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذا قدمت عليه أجلاف العرب ليسلموا على يده يفصل لهم توحيد الربوبية والألوهية ويخبرهم أن توحيد الألوهية هو الذي يدخلهم في دين الإسلام، أو يكتفي منهم بمجرد الشهادتين وظاهر اللفظ ويحكم بإسلامهم، فما هذا الافتراء والزور على الله ورسوله، فإن من وحد الرب فقد وحد الإله ومن أشرك بالرب فقد أشرك بالإله، فليس للمسلمين إله غير الرب، فإذا قالوا: لا إله إلا الله إنما يعتقدون أنه ربهم فينفون الألوهية عن غيره كما ينفون الربوبية عن غيره أيضاً، ويثبتون له الوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله)) اهـ.

ومن الآيات التي يُستدل بها على شرك المسلمين باطلاً قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤] فهؤلاء الأقوام ينزلون هذه الآية وأشباهها على المتوسلين من الموحدين ونحوهم ويتوهمون أن المسلمين يعبدون أصحاب هذه القبور بالدعاء عندهم ويقولون إن أهل القبور الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون من قطمير ولا يسمعون دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم لأنهم لا ينفعون ولأن الميت لا ينفع الحي ويوم القيامة يكفرون بشرككم - كذا يقول هؤلاء الأقوام - هدانا الله وإياهم - وجعلنا من المحبوبين آمين.

والجواب: أن هذه الآية نزلت في الأصنام التي تعبد من دون الله[1] وليست في أصحاب القبور. قال الجلال السيوطي رحمه الله في (الجلالين) ((﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [فاطر: ١٣] أي تعبدون غيره وهم الأصنام ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] لفافة النواة)) اهـ. ونحو هذا في صفوة التفاسير، فلا يجوز أن تحمل هذه الآيات التي أنزلت في الأصنام على أصحاب القبور؛ لأن أصحاب القبور هم عكس من أنزلت فيهم الآية تماماً فأصحاب القبور يملكون أعمالهم الصالحة التي اكتسبوها في الدنيا وينتفعون بها أما الأصنام فلا تملك شيئاً لأنها جمادات، وهي أيضاً لا تسمع أحداً يناديها بينما الأموات يسمعون من يناديهم كما جاء في الأحاديث الصحيحة الصريحة كحديث الصحيحين وغيرهما ((**إن الميت إذا وضع في قبره ليسمع قرع نعالهم**)) وكحديث الصحيحين الآخر في نداء أهل القليب وعندما راجع سيدنا عمر ابن الخطاب النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في ذلك قال: ((**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**)) اهـ وكالحديث الصحيح الذي رواه الطبراني وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: عندما سئل وهل يسمعون؟ قال: ((**يسمعون كما تسمعون ولكن لا يجيبون**)) وكالحديث الصحيح الآخر الذي فيه قال النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام**)) إلى غير ذلك من الأحاديث التي تثبت سماع الأموات بما لا يدع مجالاً للشك، وأما ما يورده البعض من الآيات والأحاديث التي تفيد خلاف ذلك فاعلم أن العلماء قد أجابوا عنها بما يثلج الصدر – فاحذر أن تتشكك في هذه المسألة –

ومما يستدل به القائلون على عدم سماع الأموات قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠] والجواب: أن المراد به السمع النافع الذي هو سبب الهداية والاستفادة لا سماع الأذن، ونظر العين ونطق اللسان ويؤيِّد هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن حيث نفى عن الكفار

(١) وأن دعاء المشركين لها كان على وجه العبادة مقروناً باعتقاد الألوهية والربوبية.

أسباب الهداية بسمعهم وببصرهم وبكلامهم مع أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] وقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] غير ذلك كثير - قال الإمام السيوطي في منظومته في التوحيد:

سماع موتى كلام الخلق قاطبة ... جاءت به عندنا الآثار في الكتب

وآية النفي معناها سماع هدى ... لا يقبلون ولا يصغون للأدبِ

مبحث في نفع الميت للحي

وأما قولهم أن الميت لا ينفع الحي لأنه لا يتحرك ولا يعمل فكيف ينفع غيره؟ فهذا كلام باطل فعقيدة أهل السنة والجماعة أنْ لا نافع ولا ضار إلا الله، وأن الحي لا يستطيع أن ينفع أحداً ولا الميت استقلالاً، وإذا أراد الله أن لينفعك بالحي نفعك مَجَازاً بقوله وبفعله والنافع الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، وإذا أراد أن ينفعك بالميت نفعك المِيِّتُ مَجَازاً بالدعاء لك وغيره حسب منزلته عند الله تعالى وقد قال الله تعالى من أثناء الحديث القدسي: ((**ولئن سألني لأعطينه**)) فيدخل في ذلك الدعاء لنفسه ولغيره سواء ذلك في الحياة الدنيوية والحياة البرزخية والنافع الحقيقي هو الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧] ومن المعلوم أن الرَّامي هو الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فاثبت المولى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الرمي مجازاً ولنفسه حقيقة قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦] ولذلك قال عُلَماء التوحيد: ((يجب أن نعتقد أن الماء لا يروي بذاته ولا السكين تقطع بذاتها ولا النار تحرق بذاتها، ولا الدواء يشفي بذاته ولا الطعام يشبع بذاته؛ وإنما الله تعالى هو الذي يخلق الري عند تناول الماء، والقطع عند مباشرة الشيء بالسكين، والحرق عند مباشرة النار للشيء، والشفاء عند تناول الدواء والشبع عند تناول الطعام من باب ربط الأسباب بالمسببات ويجوز أن تتخلف حسب العادة قال صاحب منظومة (بدء الأمالي) في علم التوحيد:

ومن يقل بالطبع أوبا لعلة فذاك كفر عند أهل الملة

فمن اعتقد أن الماء مثلاً يروي بذاته استقلالاً كفر والعياذ بالله حمانا الله من البدع ومن كل شر وضر ظاهراً وباطناً في الدنيا والآخرة. وإنما الصحيح ما تقدم ذكره من أن الله هو الخالق للأشياء كلها.

ومما يستدل به على أن الميت إذا أراد الله عز وجل أن ينفع الحي نفعه، ما رواه البخاري في صحيحه في (قصة المعراج) بعد أن فرض الله سبحانه وتعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خمسين صلاة قابل سيدنا موسى في السماء السادسة فكان سيدنا موسى يقول لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ارجع إلى ربك واسأله التخفيف، فيرجع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى ربه ويراجعه حتى خُففت الصلاة إلى خمس صلوات بدل الخمسين، فانظر كيف نفع سيدنا موسى الأمة المحمدية وهو منتقل في عالم البرزخ. ونحو ذلك ما رواه الترمذي: أن سيدنا إبراهيم أخبر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليلة الإسراء فقال: ((**يا محمد أقرئ أُمَّتكَ منّي السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**)) قال الترمذي: حديث حسن كذا في (الأذكار) اهـ فكم من مسلم طرقت أذنه هذه الفائدة لأول مرة فقام يعمل بهذا التسبيح، أو طرقت أذنه مرةً أخرى فأنهضته للعبادة والذكر وأبعدت عنه كسل الشيطان، وكل ذلك بفضل سيدنا إبراهيم وهو قد انتقل من دار الدنيا. فعرفت الآن أن الميت إذا أراد الله أن ينفع به أحداً نفعه؛ لأن النافع الحقيقي هو الله وإنما هذا سببٌ جاء نفع الله سبحانه وتعالى لك على يده أو عن طريقه.

وسأورد لك دليلاً تتيقن به صحة فهم أهل السنة والجماعة للأحاديث السابقة في إثبات سماع الأموات ومعرفتهم لما يجري للأحياء، بل ونفعهم لهم إذا أراد الله ذلك، قال سيدي العلامة محمد بن سالم بن حفيظ بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي التريمي الحضرمي — نفعنا الله به في الدارين في كتابه (الوسيلة) ما نصه: ((وإنّا نَنْقُلُ هنا مثالاً لا شك في صحته في البخاري[1] مختصراً والطبراني مطوَّلاً عن أنس رضي الله عنه قال: ((لما انكشف الناس يوم اليمامة قلت لثابت بن قيس: ألاَ ترى يا عم؟ ووجدته يتحنَّط، فقال ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بئس ما عودتم أقرانكم، اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء وما صنع هؤلاء، ثم قاتل حتى قُتل وكان

---

(١) ذكره البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب التحنط عند القتال).

عليه درع نفيسة فمر به رجل مسلم فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال: إني أوصيك بوصية إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إني لما قُتلتُ أَخَذَ دِرْعِي فُلاَنٌ ومنزلهُ في أقصى الناس وعند خِبَائِهِ فرس تستن "أي تذهب وتجيء عدواً في نشاطٍ ومَرَح ولاَ راكب عليها" وقد كُفِئَ على الدِّرع بَرْمَة وفوقها رحلٌ، فأتِ خالداً فمُرْهُ فليأخذها وليقل لأبى بكر إن عليَّ من الدَّيْنِ كذَا وكذَا، وفُلان عتيق. فاستيقظ الرَّجل فأتى خالداً فأخبرهُ فبعث إلى الدِّرع فأتى بها، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته)) هذا لفظ ابن حجر في (الاصابة)[1] في ترجمة ثابت بن قيس رضي الله عنه اهـ، فهذا الرجل ميت يغضب على تركته أن يأخذها غير وارثه، فيأمر من يذهب إلى قائد الجيش يخبره بمكانها ليردها إلى ورثته، ويخبره أن يخبر الخليفة حتى يؤدي ما عليه من الدين ويخبره بوصيته بعتق غلامه ووَصَفَ له المكان الذي خُبِّئَتْ فيه الدِّرع كأنه يشاهد ذلك المكان، فتمعن في ذلك. اهـ بتصرف.

وبهذا تعرف أن الأموات ينفعون الأحياء إذا أراد الله ذلك، ولا يمنعهم الموت من ذلك.

وبهذا تعرف أيضاً أن الاستدلال بتلك الآية لا يصح بل لا يوجد دليل على منع الاستغاثة وتجويز إخراج المسلمين من ملتهم إلا ما اعتقده أولئك الأقوام من الآيات التي ساء فهمهم فيها، وهي لا تمت إلى الموضوع بأي صلة.

ومن الآيات التي يستدل بها أولئك الأقوام باطلاً على أن المسلمين -والعياذ بالله- مشركون قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] فهؤلاء يقولون بهذه الآية أنه لا يجوز لنا أن ندعوَ أحداً من الأموات فإذا دعونا أحداً أو ناديناه فقد صرفنا العبادة لغير الله وهذا شرك لا يجوز...

---

(١) ذكر هذه القصة ابن القيم في (الروح) عن ابن عبد البر وابن رجب في (أهوال القبور)، والسيوطي في (شرح الصدور)، وقال أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب (الوصايا)، والحاكم في (المستدرك)، والبيهقي في (دلائل النبوة)، وأبو نعيم عن عطاء الخرساني. اهـ من (الوسيلة) نقلاً عن (صلح الأخوان).

والجواب: قال العلماء نفعنا الله بهم: إن معنى هذه الآية -كما في البغوي عن قتادة- أن اليهود والنصارى كانوا إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا العبادة والدعوة له إذا دخلوا المساجد اهـ فتعلم أن الاستدلال بهذه الآية أيضاً على تكفير المسلمين غير صحيح.

◙ ◙ ◙

مبحث في معنى الدعاء والعبادة

وأما قولهم أن الدعاء هو العبادة ..... الخ فقد قال العلماء رضي الله عنهم: ((الدعاء هو النداء)) وطلب الإقبال ولا يكون عبادةً إلا إذا اعتقد الداعي في المدعو شيئاً من صفات الربوبية كاستقلال الضر والنفع. فقول الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**الدعاء هو العبادة**))(١) وفي رواية: ((**الدعاء مخ العبادة**)) ينطبق على المسلم عندما يدعو ربه؛ لأنه يعتقد فيه صفات الربوبية وأحقيته بهذا التضرع، ولا ينطبق على المسلم عندما ينادي أحداً من الأموات أو أصحاب القبور؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم نادى أصحاب القبور كما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم نادى أهل القليب بأسمائهم، ونادى أبوبكر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعد وفاته كما ثبت في (البخاري) بقوله: ((بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين)) وبهذا نعرف أنه لو كان الدعاء هو العبادة مطلقاً أو لو كان نداء الأموات حراماً أو شركاً كما يتوهمون لما نادى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أحداً ولما نادى أبوبكر رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعد وفاته، فدلت الأحاديث المتقدمة على جواز النداء للميت اهـ، فإن قال قائل: ولكنَّ أبابكر لم يطلب من رسول الله شيئاً بعد وفاته!! قلنا قد فهمت أولاً أن نداء الأموات جائز لا إثم ولا شرك فيه فقد دل الدليل على جوازه، ثم إن أبابكر وإن كان لم يطلب من رسول الله شيئاً إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد علَّم أُمَّته أنْ تَطلب منه بعد وفاته، كما سيأتي الدليل عليه وكذلك فعل الصحابة فقد استغاثوا به صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعد وفاته وهذا يستحيل أن يكون قريباً من الشرك فضلاً عن أن يكون شركاً كما ستعرف ذلك في عرض أدلة أهل السنة والجماعة اهـ. ومما يدل دلالة قاطعة على أنه يستحيل أن يكون كل دعاء عبادة على إطلاقه قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ

(١) رواه أحمد والأربعة وغيرهم وصححه الحاكم وأقره الذهبي.

﴿بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور: ٦٣] فلو كان الدعاء هو العبادة مطلقاً لكان المعنى: لا تجعلوا عبادة الرسول بينكم كعبادة بعضكم بعضا، وهذا لا يقوله عاقل؛ لأن الصحابة كانوا لا يعبدون الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم حتى ينهون عن ذلك؛ وكذلك قال سيدنا نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] فهل يظن هؤلاء أن سيدنا نوحاً عبد قومه؛ لأن معنى الدعاء العبادة؟

وبهذا تتيقن يقينا قاطعاً أن ما يستدل به أولئك الأقوام على شرك المسلمين من تلك الآيات التي أنزلت في الكفار ومن شاكلهم باطل غير صحيح واستدلالهم بالآيات في غير موضعها .

فإن قال قائل: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب..

فالجواب: ما قاله الشيخ الفاضل عبد الله الغماري - رحمه الله - في كتابه (الرد المحكم المتين) حيث قال: ((والمعنى لذلك هنا أن تلك الآيات التي أنزلت في مشركي العرب لا تختص بهم لكونها وردت بسببهم بل تعم كل من عبد شيئاً من دون الله واتخذه إلهاً مع الله سواء إن كان المشرك من العرب أم من العجم وسواء إن كان في عهد التنزيل أم بعده إلى قيام الساعة؛ لأن لفظ المشركين في الآيات يشمله بحسب الوضع الشرعي واللغوي وكونه وارداً في طائفة منهم كمشركي العرب لا يكون مانعاً من حمله على باقيهم ولا معارضاً له، فيجب الأخذ بمدلول اللفظ والتمسك بعمومه حتى يقوم الدليل على التخصيص كلفظ الماء في حديث الترمذي عندما سئل النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن الوضوء من بئر بضاعة فقال: ((**إن الماء الطهور لا ينجسه شيء**))، فهو لا يختص بماء بئر بضاعة لكونه ورد فيه بل يعم ماء الآبار والأنهار؛ لأن كله يشمله لفظ الماء لغة وشرعاً، وكذلك لفظ مسلم في قوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**سبحان الله إن المسلم لا ينجس**)) لا يختص بأبي هريرة رضي الله عنه الذي كان سبب وروده بل يعم ذلك كل مسلم من ذلك الوقت إلى قيام الساعة وهكذا كل لفظ عام ورد على سبب خاص، فمعنى حمله على عمومه: أن يحمل اللّفظ على ما سيتناوله

لغةً وشرعاً كما قَدَّمْنا، وليس معناه أنْ يحمل اللَّفظ على ما لم يتناوله ولا هو مدلوله كما لو حمل لفظ مسلم في الحديث السابق على المسلم والكافر معاً فإنه قلب للأوضاع اللغوية والشرعية وحملٌ للّفظِ على ما لا يحتمله، وهو مع ذلك تلاعب بنصوص الشرع اهـ. إذا علمت هذا تعلم بطلان ما يقوله هؤلاء الأقوام إن هذه الآيات وإن أنزلت في عُبَّاد الأصنام إلا أنها تشمل كل من عمل عملهم وذلك لأن لفظ المشركين في الآيات التي ذمت عُبَّاد الأصنام لا يتناول المسلمين، ولا يمكن أن تتناولهم لا بوضع اللغة ولا بوضع الشرع ولا بعرفه، فتطبيقه عليهم كتطبيق لفظ مسلم على الكفار في الحديث السابق سواء بسواء، إذْ أن في كل منهما خروج عن مدلول اللفظ وتحريفاً في التأويل إلا إذا انسلخ المسلمون عن إسلامهم وعبدوا غير الله واتخذوا آلهة مع الله كما فعل عُبَّاد الأصنام فحينئذٍ تشملهم تلك الآيات بالقاعدة المتقدمة، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل ولن يحصل إذ يلزم عليه اتفاق الأُمَّة على الشرك وهو محال شرعاً.

ثم قال الشيخ الغماري رحمه الله: ((فإنْ قال قائل: لم أرد بعمل المشركين خصوص الإشراك واتخاذ الآلهة من دون الله، بل أردت ذلك وما في معناه كدعاء الأولياء والصالحين والاستغاثة بهم والتوسل بهم إلى الله في قضاء الحوائج فإن ذلك كله يصدق عليه لفظ الإشراك فتكون الآيات على هذا شاملة لأهل التوسل بعموم اللفظ لا بشيء آخر)). قلنا هذا باطل من وجوه:

الوجه الأول: أن حقيقة الإشراك في اللغة: تباين حقيقة كل من التوسل والاستغاثة والدعاء؛ لأن الإشراك معناه: اعتقاد شريك مع الله في الألوهية وهو كُفْرٌ تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً، ولهذا فسَّر كثير من أهل اللغة الإشراك بالكفر لأنه كفر بالله وجحد لوحدانيته. وأما التوسل: فهو التقرب إلى الغير، يقال توَسَّلَ إلى فلانٍ بكذا إذا تقرب إليه بشيء، والوسيلة ما يتقرب به، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] والاستغاثة: معناها طلب الغوث والنجدة، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص: ١٥] أي طلب إغاثته

ونجدته. والدعاء: معناه النداء وطلب الإقبال، يقال دَعَا فلاناً إذا نَادَاهُ طالباً إقباله عليه، ومنه ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[النور: ٦٣] ودَعَا الله: ناداهُ بابتهالٍ وخُضوع، ومنه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة: ١٨٦] فإذا كانت هذه الحقائق متباينة كما ترى فكيف يصح إرادتها في لفظ واحد وهل هذا إلا تلاعب بالنصوص.

الوجه الثاني: أن الإشراك الذي حصل من المشركين الذين ذمهم القرآن هو عبادتهم للأنبياء والملائكة والأولياء وبناءاً على اعتقادهم فيهم أنهم شاركوا الألوهية وإن لهم تأثيراً في الأشياء ولذلك ترى القرآن في معرض الرد عليهم يقرر دلائل وحدانية الله وانفراده بالألوهية، ثم قال: لأن ما في القرآن مما يتعلق بالتوحيد والرد على المشركين كله في هذا المعنى وهو كثير ومع ذلك لا تجد فيه إشارة إلى التوسل بالمعنى الذي نتكلم عنه؛ لأنه لم يكن من عمل المشركين ولا معروفاً لهم، فبطل أن يكون داخلاً في تلك الآيات لا بالعموم ولا بالخصوص ولا بنوع من الدلالات.

الوجه الثالث: أن الاستغاثة أيضاً ورد بها الحديث كما سيأتي وذلك دليل قاطع أنها ليست بإشراك ولا من الإشراك اهـ. انتهى كلام الشيخ الغماري وهو كلام نفيس وحذفت وجهاً أيضاً من هذه الأوجه للاكتفاء بهذه.

إذا علمت هذا أيها الأخ، علمت أنَّ تلك الآيات التي يستدل بها في هذا الموضوع يستدل بها في غير موضعها؛ لأنها لا تَمتُّ بأي صلة إلى موضوع الاستغاثة. ولا داعي لذكر الآيات الأخرى التي يستدلون بها؛ لأنه بالرجوع إلى أقرب تفسير ومع سلامة الباطن من التعصب والهوى يَرَى الإنسان الحق أمامه ظاهراً لا غبار عليه في أنّ لا ذرَّة من الشرك في الاستغاثة ونحوها.

بل ولا تجد مفسِّراً واحداً معتبراً استدل بتلك الآيات على حرمة التوسل أو الاستغاثة وكتب التفسير موجودة بيننا بفضل الله تعالى تشهد بهذا. اهـ

ويَستدلُّ بعضُهم بحديث الطبراني في (الكبير) وذلك عندما قال سيدنا أبو بكر

الصديق: ((قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: **إنه لا يُستغاث بي، وإنما يستغاث بالله تعالى**)) والاستدلال بهذا الحديث على منع الاستغاثة باطل؛ لأن في سنده (ابن لَهِيْعة) وهو متكلّم فيه عند أهل الحديث، فلا يُستدلّ على أمر خطير كتشريك المسلمين بحديث ضعيف كهذا ومع ضعفه أيضاً فلا يخفى على عاقل أنَّ الصديق – رضي الله تعالى عنه – لم يكن يجهل الفرق بين الشرك والتوحيد، وما كان ليخفى عليه ما هو الشرك بعد مُكْثِه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم السِّنين الطِّوال وهو من أوَّل من أسلم وآمن به، فلو كان في الاستغاثة برسول الله شرك لما أقدم عليها أبو بكر الصديق وهو من أعلم الصحابة، فلم يَبْقَ لَوْ صَحَّ الحديث لقول رسول الله: ((**لا يستغاث بي**)) معنى إلا حمله على الحقيقة على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧]، على أنه لو صَحَّ أيضاً لكان فيه هدم باطلهم في التفريق بين الحي والميت، وهم الذين إذا أُفْحِمُوا بالأدلة قالوا: تجوز الاستغاثة بالحي فيما يَقدر عليه، ولا شك أنَّ رسول الله هنا قادر على الدعاء، وعلى كثير من الدفع والمنع لنفوذ أمره وكلمته فكيف يقولون يَجوز الاستغاثة بالحي ثم يمنعونها هنا بهذا الحديث، هل ذلك إلاَّ خَبطٌ وخَلْط لا سند له من عِلْمٍ ولاَ حُجة.

الفصل الثاني

أدلة أهل السنة والجماعة على جواز الإستغاثة

الدليل الأول: ما رواه البخاري رضي الله عنه في صحيحه في (كتاب الزكاة) أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: ((**إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع، فيقضى بين الخلائق**))، ووجه الدلالة في هذا الحديث أن هذا تصريح بالاستغاثة بغير الله في أمرٍ لا يملكه إلا الله فلو كان شركاً لما كان الله شرعه لنا ورضيه لنا وهو يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر: ٧] قال ابن حجر في (الفتح): ((إن الناس يستصحبون حالهم في الدنيا من التوسل إلى الله في حوائجهم بأنبيائهم)) اهـ. وفي ذلك دليل أنه لا فرق عنده بين التوسل والاستغاثة إذ قال: ((يستصحبون حالهم في الدنيا من التوسل..... الخ)) مع أن لفظ الحديث (استغاثوا) فلو كان ثمَّ فرقٌ بين التوسل والاستغاثة لقال: استصحبوا حالهم من الاستغاثة، ليناسب الحديث؛ لأن لفظَهُ (استغاثوا)، ولكن لما كان لا يوجد فرقٌ[1] بينهما قال استصحبوا حالهم من التوسل.

فإن قال قائل: هذه الاستغاثة قد أخبرنا عنها نبينا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأن الأنبياء يومها أحياء وَهُمْ يستغيثون بأحياء والاستغاثة بالحي جائزة في الدنيا أو في الآخرة.

والجواب: ما تقدم ذكره من أن الله تعالى لا يرضي أن يكون هناك عملاً إذا عُمل في الدنيا أيام تكليف الأمة يكون شركاً أكبر مخرجاً من الملة، وإذا عمل وهم في الآخرة لا يكون كذلك، فكأن هذا يعتقد أنه يجوز أنْ يصلي أحدٌ

(١) وهذا هو الحق الذي قاله العلماء أن لا فرق بين التوسل والاستغاثة والتوجه والتشفع لأن مؤدَّى الجميع واحد وإن كان ثمَّ فرقٌ بين هذه الألفاظ فإنما هو من حيث اللغة كما تقدم اهـ.

ركعتين مثلا للإنسان إذا كان في الدنيا ولا يجوز إذا كان الذي يصلي له في البرزخ أو في الآخرة، فكل هذا لا يتصور لأنها لو كانت الاستغاثة عبادة لا يجوز صرفها إلا لله تعالى لَمَا كانت جائزة في حالة الحياة وشركاً حالة المهات، ولَمَا كانت جائزة بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وشركاً بسواه من الأنبياء والأولياء، إذ أن الشرك لا يرضاه الله لعباده لا في حالة الحياة ولا في حالة المهات، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا بنبي ولا بملك، فالتوحيد توحيد، والشرك شرك، فعجباً لأقوام قالوا الاستغاثة بالحي جائزة وبالميت شرك وخالفوا بذلك النصوص الصريحة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر: ٧].

الدليل الثاني: وتنزلاً مع تعصب ورأي من رأى الاستغاثة بالحي جائزة وبالميت شركاً، ففي الحديث الآتي وهو حديث الأعمى ما يثبت جواز الاستغاثة بالميت إذا كان لا يعتقد أنه ينفع ويضر من دون الله، فقد روى ابنُ أبي خيثمة بسنده عن عثمان ابن حنيف: (أن رجلاً أعمى أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فقال: إني أصبت في بصري فادع الله لي. قال: اذهب فتوضأ وصلِّ ركعتين ثم قل: **اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة "يا محمد" إني استشفع بك إلى ربي في رد بصري، اللهم شفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري، وإن كانت** حاجة فافعل مثل **ذلك** فرد الله عليه بصره). قال ابن أبي خيثمة: أبو جعفر هذا الذي حدث عنه حماد بن سلمة اسمه عمير بن يزيد اهـ.

ورواية الترمذي من (كتاب الدعوات) وفيها: ((فأمره أن يتوضأ ويحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلي ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، اللهم فشفعه فيّ))، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي. قال الشيخ عبد الله الغماري: ولعَّل زيادة لفظ (غير) سهو من الترمذي رحمه الله، وإلاَّ فأبو جعفر هو الخطمي كما صرح به ابن أبي خيثمة والطبراني وغيرهما اهـ، وقال بعض أصحابنا: ولعل لفظ (غير) وقع تصحيف لكلمة عُمَير؛ لأن أبا جعفر

الخطمي اسمه: عمير بن يزيد بن عمير اهـ. وهذا جواب حسن كما تراه. وهذا الحديث فيه دليل واضح على جواز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعد وفاته خاصة وبسواه من الأنبياء والأولياء، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم علَّم ذلك الرجل الاستغاثة به في قوله ((يا محمد)) فهو نداء للغائب وشامل في أيام حياته وبعد وفاته وليس مخصوصاً بأيام حياته؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يَعْلَمُ أن أمته ستفعل هذا بعده خصوصاً وأنه جاء في رواية ابن أبي خيثمة كما تقدم، فإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك، ولو كان هذا خاصاً بأيام حياة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبعد وفاته يكون شركاً لما سكت النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن تحذير هذا الصحابي من هذا الفعل بعد وفاته، أو لو كان ذلك خاصاً بالحضور دون الغيبة لبيّن ذلك أو لو كان خاصاً بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم دون غيره لدل الدليل على أنه خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم دون غيره، وقد دون العلماء خصوصيات رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كتزوجه أكثر من أربع نسوة وكمواصلته الصوم ولم يذكر أحد من العلماء المعتبرين في كتب الخصائص أن من خصوصياته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم جواز الاستغاثة به في حياته دون وفاته أو به فقط دون غيره من الأنبياء أو الأولياء اهـ. أو لو كان الحديث خاصاً بذلك الصحابي دون غيره لبيّن له النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كما بيّن لأبى بردة أن الجدعة من المعز تجزئه في الأضحية ولا تجزئ أحداً غيره، وهو حديث متفق عليه.

واعلم أيها الأخ أن هذا الحديث - أعني حديث الأعمى - قد أخرجه وصححه عدد من الحفاظ والنقاد المعتبرين كالشيخ ابن حجر العسقلاني والهيثمي والنووي والسيوطي وغيرهم، مع ابن أبي خيثمة والترمذي والطبراني كما تقدم والبيهقي والنسائي وابن ماجه والبخاري في (التاريخ) وابن خزيمة وغيرهم.

واعلم أيضا أن بعض المتعصبين يقدح في هذا الحديث بحجج واهية؛ لأنه دليل صريح في جواز الاستغاثة، فاحذر أن تلتفت إلى شيء من شبههم فقد أجاب عنها العلماء

جواباً شافياً يعلم كل من قرأه أنه الحق الذي لا محيد عنه والحمد لله رب العالمين[١].

الدليل الثالث: فعل الصحابة للاستغاثة دون أن ينكر منهم أحد، وذلك بعد وفاة الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فقد قال الحافظ في (الفتح)[٢] روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال: ((أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فقال: يا رسول الله استسقِ لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في المنام وقال: ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم مُسْقَون، وقال له: عليك الكيس الكيس، فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال: ما آلوا إلى ما عجزت عنه)). والرجل هو بلال بن الحارث المزني كما رواه سيف في (الفتوح). فانظر كيف جاء هذا الصحابي الجليل إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وكان يقرأ تلك الآيات التي يستدل بها هؤلاء الأقوام اليوم على تشريك المسلمين ولم يفهم منها إنه شرك.

واعلم يا أخي أن بعض الناس يقدح في هذا الحديث أيضاً بحجج واهية، إلا أنها شُبَهٌ تشكك على العامي البسيط، فاحذر أنْ تقف مع شيء منها، فإن لم تكن وجدت جواب تلك الشبه فاسأل أحد العلماء المخلصين، واحذر من عدم السؤال فتنشأ داخلك البدعة وتكبر ولا تنتهي.

ومن هذه الشُّبَهِ قول بعضهم: إن هذا الذي جاء إلى القبر ليس هو الصحابي الجليل بلال المزني وإنما آخر غير معروف؛ لأن رواية سيف أنه بلال المزني متكلَّم فيها.

وجوابه: أن الحجة في إقرار سيدنا عمر لذلك الرجل وعدم نهيه عندما أخبره برؤياه وإتيانه القبر، فكيف يقر سيدنا عمر أحداً على الشرك، وبعضهم يرد هذا الحديث بأن مالك الدار غير معروف العدالة وهذا سوء أدب خطير في حق سيدنا عمر

---

(١) انظر كتاب (الرد المحكم المتين) صـ١٥١.

(٢) الفتح ٢/ ٤٩٥.

وعثمان اللذين ولَّياه بيت المال ولا يوليان أحداً في هذا المنصب إلا وهو عدل أفلا يكفي هذا التعديل، ناهيك عما تكلم في حقه بعض الحفاظ[1] الأجلاء من أنه معروف ثقة، فاحذر مما يثيره البعض عن مالك الدار وجهالته وتوثيقه فإن أشكل عليك الأمر فاسأل العلماء أو ابحث في الكتب بصدق بالاستعانة بأحد من أهل العلم، وستعرف أن الحديث يحتج به تماماً؛ لأنه صحيح كما قال الإمام ابن حجر العسقلاني وغيره من الحفاظ فلا يبقى شك إن شاء الله تعالى.

الدليل الرابع: ما رواه الإمام الدارمي بإسناد[2] صحيح وفي سنده سعيد بن زيد وتكلم فيه ولكنه من رجال مسلم وفي الإسناد أيضاً عمرو بن مالك النكري تُكُلِّم فيه أيضاً ووثقه ابن حبان والذهبي قال: ((قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا ذلك إلى سيدتنا عائشة رضي الله عنها فقالت انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فاجعلوا منه كُوًّا إلى السماء حتى لا يبقى بينه وبين السماء سقف قال: ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم وسمي العام عام الفتق اهـ.

فتفكر - يا أخي - في هذا العمل الذي قام به الصحابة بإرشاد زوج النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ما معناه، وقلِّب الطرف فيه، ولماذا عندما جاء الصحابة يسألون السيدة عائشة رضي الله عنها لم تقل لهم ادعوا الله أنتم لأنفسكم فقط، وإنما أرشدتهم أيضاً إلى إظهار القبر المعظم، ولو كان هذا فيه ذرة من الشرك لما أرشدتهم إليه السيدة عائشة، ولما قبل الصحابة ذلك، ولما نزل المطر، ولكن الصحابة كانوا يعلمون أن هذا الأمر، ومنه الاستغاثة به صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لا يقدح في التوحيد أبد بل هو منه لذلك فعلوه بلا نكير من أحد منهم فسبحانه عز وجل الملهم العظيم الفتاح العليم.

الدليل الخامس: ما رواه الإمام الهيثمي في (المجمع) ورجاله رجال الصحيح إلاَّ

---

(١) منهم ابن سعد في (الطبقات) وغيره.

(٢) فالحديث صحيح كما يقول السيد حسن السقاف لأن رجاله رجال مسلم ما عدا عمرو بن مالك النكري ولكنه ثقة ولو تنازلنا فإنه يكون حسناً وعلى كلا القولين هو دليل صحيح محتج به ولا ينزل إلى الضعف أبداً فتنبه اهـ.

خلاَّد بن عيسى وهو ثقة، عن خالد بن سعيد عن أبيه عن جده قال: قدمتْ بكرُ بن وائل مكة فقال: النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لأبى بكر ائتهم فاعرض عليهم الإسلام، وفيه فأتاهم فقالوا: حتى يجيء شيخنا أحسبه قال: المثنى بن خارجة فلما جاءهم قال: من القوم؟ قالوا: بنو ذهل بن شيبان، فعرض عليهم أبو بكر فقالوا: إن بيننا وبين الفرس حرباً فإذا فرغنا فيما بينهم وبيننا عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التقوا يوم ذي قار هم والفرس قال شيخهم: ما اسم الذي دعاكم إلى الله قالوا: (محمد) قال: هو شعاركم فنُصِرُوا على القوم فقال الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بي نصروا[١] اهـ، فانظر كيف أقرهم الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على الاستغاثة به وهو غائب عنهم، وقال: ((**بي نصروا**)) ولو كان التوسل أو الاستغاثة شركاً لما كان أقرهم على الاستغاثة به إذْ حاشاه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام ثم يعلم أنهم استغاثوا به ويسكت على ذلك، فدل هذا على أن الاستغاثة جائزة.

فتمعَّن وتفكر يا أخي في هذه الأدلة، واعلم أن دليلاً واحداً منها يكفي في رد دعوى هؤلاء الأقوام، فكيف بمجموعها فكيف بغيرها[٢] مما لم أذكرها هنا وإنما هي موجود في الكتب التي بحثت هذا الموضوع، مثل: كتاب (شواهد الحق) للنبهاني[٣]، و(نَفَس الرحمن) للغرباني، و(مفاهيم يجب أن تصحح) للسيد المالكي[٤]، و(الوسيلة للوقاية عن مضلات الفتن) للحبيب العلامة محمد بن سالم بن حفيظ، وغيرها من الكتب الأخرى، فاطلع عليها كي يطمئن قلبك وينشرح صدرك، والله يتولى هدانا بفضله اهـ.

▣ ▣ ▣

(١) ينظر كتاب (السنة والبدعة) للسيد عبد الله بن محفوظ الحداد.

(٢) مثل حديث ابن ماجه وغيره عن أبي سعيد الخدري: ((**اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا إليك....**)) الخ قال العلماء: هذا الحديث فيه دليل جواز التوسل بأهل الخير من الأحياء والأموات؛ لأن حقهم لا يتقطع بموتهم، والحديث المذكور صححه الإمام ابن خزيمة وحسنه الحافظ ابن حجر وغيره، وقد حاول البعض تضعيفه فأتى بما لا طائل تحته اهـ.

(٣) وغوث العباد ببيان الرشاد للحمامي.

(٤) والتوسل والزيارة للشيخ ممدوح سعيد محمود والتأمل في حقيقة التوسل للشيخ عيسى بن مانع الحميري والوسيلة.

الفصل الثالث

في بعض الأدلة العقلية، والاستئناسات التي تُبيّن صحة طريق أهل السنة والجماعة في هذه المسألة

اعلم أيها الأخ الكريم أن المسلم إذا خلا من التعصب والهوى وفكر بعقله السليم عَلِمَ عِلْمَ يقين بصحة طريق أهل السنة والجماعة دون أن يرجع إلى أي دليل إذْ كفى بتواتر الأمة[١] على فعل هذه الاستغاثة دليلاً. ثم إن المتعصب الذي لا يريد الحق لا تقنعه الأدلة فضلاً عن الأمور الأخرى، وإنما تساق هذه الأدلة لمن يريد معرفة الحق ويملك الشجاعة لقهر نفسه وحملها على المشي في طريق أهل السنة والجماعة فهذا يعينه الله سبحانه وتعالى ويظهر له الحق.

والدليل الأول: الذي ينبغي لك أن تتفكر فيه: ما حكم المسلمين الذين يفعلون هذه الاستغاثة قبل أن تُثَارَ لأول مرة في عهد الشيخ ابن تيمية[٢] وكيف مرت القرون الأولى وفيها القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية وهم يستغيثون بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم؟ ويُنْقَلُ لنا ذلك في كتبهم وأشعارهم دون أن ينكر أحد منهم، وفيهم المجددون الذين يبعثهم الله في كل قرن فهل يعقل أن كل هؤلاء الأئمة[٣] الذين نُقِلَتْ لنا توسلاتهم في كتبهم أو نقلوا أو أقروا توسلات غيرهم مشركون - والعياذ بالله- كما يقول مبتدعة هذا الزمان؟! هذا ما لاَ يقول به إنسان جاهل فضلاً عن عاقل يعرف العلم والعلماء.

الدليل الثاني: أن تتفكر أنه لو كانت الاستغاثة فيها أي شائبة تقدح في التوحيد

---

(١) بل إن صاحب كتاب المقالات السنية ذكر الإجماع على جواز ذلك فقال في كتابه المذكور ما نصه: (فرأينا من الواجب كشف هذا التلبيس ببيان أن الإجماع كان على جواز التوسل بالأنبياء والأولياء بعد وفاتهم.... اهـ).

(٢) قال الإمام العظيم تقي الدين السبكي في كتابه (شفاء السقام) ما نصه: ((ولم يسبق ابن تيمية في إنكاره التوسل أحد من السلف ولا من الخلف بل قال قولاً لم يقله عالم قط قبله)) اهـ.

(٣) من هؤلاء الأعلام الذين نقلت لنا استغاثاتهم في كتبهم الأئمة الأعلام: السيوطي، والبيهقي، والحاكم، والقاضي عياض، وابن حجر الهيثمي الفقيه، وأبو زكريا الأنصاري، وابن حجر العسقلاني والقرطبي، وغيرهم كثيرون. ينظر كتاب (مفاهيم يجب أن تصحح) للسيد محمد علوي المالكي.فقد نقل مصادر استغاثاتهم اهـ.

لما نُقِلَتْ عن أولياء الله سبحانه وتعالى، وهم خلاصة الأمة المحمدية إذ كيف يصلون إلى أعظم درجات القرب من المولى سبحانه وتعالى وهم عصاة؟! فضلاً عن أن يكونوا مشركين؛ لأن المولى سبحانه وتعالى مِثْل ما عصم أنبياءه ورسله من المعاصي، كذلك يحفظ أولياءه من المعاصي، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] فالأولياء لا يعصون الله تعالى، وليسوا معصومين بل محفوظين ولكن يجوز صدور المعصية من الولي بخلافها من النبي، وإنما الشأن في الولاية الاستقامة والمتابعة للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وليست الكرامات فقط، إنما الكرامات أثر من آثار المتابعة للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الدليل الثالث: أن تتفكر إنه لم يوجد دليل صريح على منع الاستغاثة حسب ما تقدم في الفصل الأول، والآيات التي تورد لا تدل أي دلالة على التحريم أو الشرك، والأحاديث ضعيفة ولا يوجد نص صحيح ينهى عنها وهذا ما جعل بعض المضلّين إذا صَدَمَتْهُ الأدلة يقول إن هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء والأفضل أن نسكت عنها، وأنت يا أخي تفكر هل يتصور أن يكون الرِّبا حراماً بالإجماع وأدلة ذلك صحيحة صريحة لا غبار عليها، ونحو ذلك الزنا وشرب الخمر وقطيعة الرحم، ومسألة الاستغاثة التي تقدح في أصل الدين يكون مختلف فيها أو أدلة منعها غير صحيحة صريحة فلو كانت المسألة تقدح في أصل التوحيد لما تُرِكَتْ بلا أدلَّة صحيحة بل كان التحذير منها واضحاً صريحاً فتنبه لذلك .. انتهى.

◙ ◙ ◙

الخاتمة

اعلم يَا أخيَ أن ما تقدم ذكره في هذه المسألة من جواز الاستغاثة هو الحق الصرف الخالص الذي لا محيد عنه وهو معتمد كلام أهل السنة والجماعة وفيهم خلاصة أهل السنة والجماعة، وهم أولياء الله ورثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فإن لم يستوعب ذهنك هذا الكلام ولم تخضع نفسك لهذه الأدلة فاعلم أن الأمر في غاية الخطورة إذ لا يوجد بعد الهدى إلا الضلال، فجاهد نفسك يا أخي أن تقبل الحق وأكرهها على قبوله كما تكرهها على تناول الدواء المر رغبة في الشفاء، وأمامك الآن نفسك فاقهرها على أن تقبل كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومن طُرُقِ قهر تلك النفس المداومة على قيام آخر الليل، والتضرع للمولى أن يقذف في قلبك الحق ويريك إياه، وقل لنفسك: إن هؤلاء الذين أخذت عنهم هذه الفكرة ليسوا معصومين بل قد خالفوا سنة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتَواتُر الأُمَّة، وبتضرعك للمولى سبحانه وتعالى وبإخلاصك وصدقك في ذلك التضرع لابد أن تهب عليك نسمة من نسمات رحمة المولى الرحيم تعرف بها الحق. وأما إذا رأيت نفسك متمسِّكة بما هي عليه معتقدة أن هذا الفعل شرك لا تعبأ بأحاديث الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولا بعمل الأمة فاعلم أن نفسك هذه فيها علامة من علامات الخوارج الذين شرَّكوا الأمة قديماً وقال فيهم النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كما رواه الإمام البخاري بأنهم: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة ثم لا يعودون فيه**» أي لا يرجعون إلى ما عليه الأمة من الدين الصحيح بل يتمسكون ببدعتهم لا يتراجعون عنها أبداً معتقدين أنها الحق وهي تخالف أدلة النقل والعقل، فاحذر يا أخي من خوارج آخر الزمان.

واعلم أنك إذا اتبعت هؤلاء الأقوام الذين يستمدون نحلتهم من أهل نجد الذين

حذرنا الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم منهم، وطلبوا منه الدعاء لهم مرتين فقال: في الثالثة: ((هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان)) رواه البخاري في كتاب (الفتن)، وسمعت أحد العلماء نفعنا الله به أكمل الانتفاع يقول: هذا النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الرحمة المهداة لكل مخلوق وقال الله فيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وهو أرحم من الإنسان بنفسه يطلبون منه الدعاء فلا يرضى أن يدعو لهم كيف هذا؟ وهو الرحمة المهداة العظمى لا يرضى أن يدعو لهؤلاء الأقوام اهـ بمعناه. فإن أمرك في غاية الخطورة إذا علمت هذا فاعلم يا أخي أن هذه الفتنة حلقات مترابطة وليست قضية تشريك المسلمين فقط والقول بمنع الاستغاثة بل إن تشريك المسلمين إحدى فتنهم الكبيرة التي إذا أراد الله سبحانه وتعالى إهلاك عبد أوقعه فيها ولم يبالِ بحرمة المسلمين، وتَتْبَعُ هذه الفتنة فتن كبيرةٌ أخرى مثل: التجسيم، فإذا اتبعت هؤلاء الأقوام في إحدى فتنهم فتيقن أن بقية الفتن ستدخل قلبك عرفت أم لم تعرف شئت أم أبيت وذلك بحكم حلاوة الفتنة في القلب وتزيين الشيطان لها وقد قال سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: ((للفتنة حلاوة في قلوب أصحابها)) اهـ.

وبعض هذه الفتن كفر صريح كاعتقاد قِدَم[1] العَالَم بالنوع الذي قال به ابن تيمية، وبعضها أي هذه الفتن من اعتقدها اختلف في كفره[2] في مذهب أهل السنة والجماعة مثل مسائل التجسيم الخطيرة حتى قال بعض شيوخ المجسمة وهو أبو يعلى الحنبلي في حق الله عز وجل: إلزموني ما شئتم فإني ألتزمه، إلا الفرج واللحية[3] اهـ. فانظر إلى هذا الكلام هل يقول به مسلم عاقل. نعوذ بالله من الفهم السقيم في أحكام شرعنا العظيم.

واعلم أن هذه الفتنة أعظم فتن (الوهابية) التي يحاولون زرعها الآن بين المسلمين

---

(١) ينظر (الفتاوى الحديثية) للإمام الفقيه ابن حجر الهيثمي المكي – مطبعة مصطفى البابلي الحلبي الطبعة الثالثة صـ١١٦. وينظر أيضاً كتاب (التنبيه والرد على معتقد قِدَم العَالَم والحَد) للسيد حسن السقاف.

(٢) ينظر ما قاله ابن حجر المكي في (الفتاوى الحديثية) مطبعة مصطفى البابلي الحلبي الطبعة الثالثة صـ١١٠.

(٣) ينظر كتاب (فتح المعين بنقد كتاب الأربعين) للشيخ الغماري وتعليق السيد حسن السقاف.

وخصوصاً الأطفال، ولكن الله تكفل بإظهار الحق وإبطال الباطل ولو كره المجرمون. وتكمن خطورة نشر هذه الفتنة في هذا الزمان، حيث أنها تحمل التمهيد لأن تتقبل الأجيال والعقول فتنة (المسيح الدجال) الكبرى، إذْ أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١] يتجاهله هؤلاء الأقوام ويذكرون على مسامع الأطفال والعوام عقيدة التجسيم من أن الله تعالى له يد ورجل وساق وعينان ونحو هذا الباطل فينغرس في ذهن العامي البسيط أو الطفل أن رَبَّه على صورة إنسان خصوصاً أنهم يروجون حديث الصورة[1]، ويتلخص من هذا اعتقاد أن الحق سبحانه وتعالى الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١] في عقيدة هؤلاء الأقوام على صورة إنسان ينزل ويتحرك ويضحك وله (ساقان وعينان) ويضحكون على العوام بقولهم: نحن نَصِف الله بما وصف به نفسه. فإذا خرج المسيح الدجال آخر الزمان خيف على المُجسمة وأتباعهم ومن دخلت عقيدتهم قلبه الإيمان به على أساس أنه الله الواحد القهار الذي يحيى ويميت لِتَقبُّلِ عقولهم وجود إله بتلك الصفات المُحْدَثة. وأما المؤمنون يقولون ربنا الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١] يفرُّون من الدجال إلى رؤوس الجبال.

وإذا أردت الحق في هذه المسألة المهمة فعليك بكتاب (إلجام العوام عن علم الكلام) فإنه كتاب قيم جداً في هذا الموضوع، وكذا كتاب (دفع شبه التشبيه) لابن الجوزي وكتاب (دفع شبه من شبَّه وتمرَّد) لتقي الدين الحصني، وكتاب (إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل) وكتاب (فتح المعين بنقد كتاب الأربعين)، ولا تغفل عن الكتاب الأول (إلجام العوام) للإمام الغزالي فإنه غاية في التحقيق. وإنما أطلت الكلام في هذه المسألة مع أنها ليست من موضوع الاستغاثة لأنها مهمة جداً، وتنبني خيرات الدارين على عقيدة صحيحة موافقة لأهل السنة والجماعة.

فإذا عرفت هذا عرفت أن موضوع الاستغاثة بالأموات أو التوسل بهم إلى الله

---

(١) وهذا الحديث حكم بوضعه السيد حسن السقاف في رسالة له. وتكلم فيه أي في حديث الصورة أئمة كبار في هذا الفن بكلام حسن فاطلع عليه !.

سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج لا يقدح في توحيد المؤمن مطلقاً لعدم الدليل على منعه كما تقدم إيضاحه ولورود الأدلة بفعله، وهو أمرٌ نقل لنا بأخبار بلغت مبلغ التواتر عن الأئمة الأعلام من أولياء وصلحاء وفقهاء ومُحدثين ومفسرين وأصوليين[١] وغيرهم، فلو كان ذلك العمل عملاً محرماً فضلاً عن أن يكون شركاً لما نقل لنا عن الأئمة حملة الشريعة وإلا حينها تكون الشريعة المحمدية باطلة ولا ثقة فيمن حملوا لنا هذا الدين العظيم عبر أحقاب الزمن حتى وصل إلينا سالماً محفوظاً كما تلقاه الصحابة الكرام رضوان الله عنهم عن حبيب الرحمن صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. فأي ثقة في دينٍ نقله علماء أو أقوام عقائدهم تحتاج إلى تصحيح كما يقول مبتدعة هذا الزمان، حاشاهم رضي الله عنهم وأرضاهم ونفعنا بهم، هذا لو لم يكن ثمَّ دليل عليه كيف وقد وردت الأدلة على جواز ذلك.

فاحذر يا أخي من هذه الفتن والضلالات، واستمسك بما عليه الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، وارجع إلى الله جل جلاله وتضرع إليه وتب توبة نصوحاً .

واشغل بأوراد العبادة عمرك الـ ـفاني وساعات الزمان المزمع

واحسِنْ ظنك في المسلمين عامّة، وفيمن أشهرهم الله سبحانه وتعالى بين خلقه بالصلاح والولاية خاصة، واحذر من الاعتراض عليهم فإنه السم القاتل والداء العضال الذي من ابتلي به سقط من عين الرحمن سبحانه وتعالى والعياذ بالله عز وجل من كل شر وضر ومكروه في الدارين.

واعلم أنه قد وقع الاتفاق بين العلماء والعقلاء والمنصفين على شرف وفضل (الطائفة الصوفية)[٢] الذين هم أولياء الرحمن سبحانه وتعالى، وهم المتحقّقون بحقائق

---

(١) ينظر (شواهد الحق) للإمام يوسف النبهاني البيروتي.

(٢) وهم طائفة أتقياء اهتموا بدرجة أولى بتصفية قلوبهم وتزكيتها من الأمراض الباطنة كالحسد والكبر والرياء والعجب وهذا هو معنى التصوف الصحيح وإليه الإشارة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ – ١٠]، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] فقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إشارة

هذا الدين العظيم وأنواره، وقد ذكر الإمام ابن كثير في (البداية والنهاية) في ترجمة الإمام الجنيد في [جـ١١]: أنه أمره خاله السري أن يتكلم على الناس، فلم يَرَ نفسه موضعاً، فرأى النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في المنام فقال له: تكلم على الناس فغدا على خاله، فقال له: لم تسمع مني حتى قال لك رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فتكلم على الناس، فجاءه يوماً شاب نصراني في صورة مسلم فقال له: يا أبا القاسم ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ((**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**))، فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه إليه وقال: أسلم فقد آن لك أن تُسلم، فأسلم الغلام اهـ. فاعتبر بهذه الحكاية عن هذا الإمام الجليل فهل الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عندما ينقل هذه الوقائع النافعة مبتدعاً أو مخالفاً للكتاب والسنة كما يقول بعض الجهلة؟! كلا.

واعلم أن العلماء الأخيار لا زالوا يوصون المتصلين بهم في سائر الأعصار والأمصار بمطالعة كتبهم والعكوف عليها قراءةً وتدبراً وتفهماً، فمعرفة أخبارهم رضي الله عنهم وأرضاهم ونفعنا بهم، وذكر حكاياتهم ووقائعهم كما قال أحد الأئمة الأعلام رضي الله عنه: ((هي فتح عام وسلوك تام)). وخصوصاً كتاب (إحياء علوم الدين) وكتب الإمام الحداد.

استغفر الله من قول بلا عملٍ	لقد نسبت به نسلا لذي عقم
أمرتك الخير لكن ما أتمرت به	ولا استقمت فما قولي لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة	ولم أصلِّ سوى فرض ولم أصم

فعسى تدركنا رحمةٌ من رحمات المولى سبحانه وتعالى فنشاهد أولئك الأقوام أحباب الرحمن وورثة سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فنشاهدهم ونراهم لا بأعيننا الشحمية إذ هم موجودون بيننا ولكن نشاهدهم بقلوبنا بعد ارتفاع الحجب التي تحجبنا عن رؤيتهم حقيقة كما قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه ونفعنا به:

إلى التصوف ..

متى أراهم وأنَّى لي برؤيتهم ... أو تسمع الأذن مني عنهمُ خبرا
من لي وأنَّى لمثلي أن يزاحمهم ... على موارد لم آلف بها كدرا
أحبهم وأداريهم وأوثرهم ... بمهجتي وخصوصاً منهم نفراً
قوم كرام السجايا حيث ما جلسوا ... يبقى المكان على آثارهم عطراً
يهدى التصوف من أخلاقهم طرفاً ... حسن التآلف منهم راقني نظراً
هم أهل ودّي وأحبابي الذين همُ ... ممن يجر ذيول العز مفتخراً
لا زال شملي بهم في الله مجتمعاً ... وذنبنا فيه مغفوراً ومغتفراً
ثم الصلاة على المختار سيدنا ... محمد خير من أوفى ومن نذراً

وقال غيره شعراً:

لي سادةٌ من عزِّهم ... أقدامهم فوقَ الجباه
إن لم أكن منهم فلي ... في حبهم عزٌّ وجاه

فهؤلاء الأقوام هم حملة الشريعة الطاهرة والمتحقّقون بحقائقها والمتمسكون بآدابها وبواسطتهم عرف هذا الدين العظيم.

فانظر كتب (الطبقات)[1] والتراجم التي يُتَرْجَم فيها لأولئك الأقوام واعرف أحوالهم، وأخبارهم، وورعهم، وزهدهم، وعلمهم، وكراماتهم، تعرف عظمة الدين الذي تحقق به أولئك العُظَمَاء رضي الله عنهم.

اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه، أنت تعلمه منا يا الله يا كريم يا رحيم يا ودود يا حي يا قيوم يا الله، ونعوذ بالله تعالى من كل خاطر خطر لنا، أو إرادة لا يرضاها المولى سبحانه وتعالى حال الكتابة، أو قبلها أو بعدها، ونسأله الغفران وأن يبدل سيئاتنا حسنات، اللهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا

(١) مثل كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) لابن السبكي.

ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١][(١)].

اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وعبادك الصالحون، ونعوذ بك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وعبادك الصالحون. وهذه الدعوة عظيمة ذكرها سيدي الإمام عبد الله بن حسين بن طاهر في (مجموعه) وأثنى عليها كثيراً وكان يذكرها سيدي الإمام محمد بن عبد الله الهدَّار نفعنا الله به في فواتحه وحزوبه.

ولنختم هذه الرسالة بهذه الدعوات العظيمات عسى الله سبحانه وتعالى أن يقبلنا على ما فينا فنقول: ((اللهم اجعلنا من المتقين، وألحقنا بالمتقين، واختم أعمارنا بالحسنى واليقين، واجعلنا من الهداة المهتدين يا أكرم الأكرمين، وفرج هذه[(٢)] الكربة عن المسلمين فإنها آفة نزلت بنا ولا يرفع الآفات إلا أنت، اللهم إنها تقمصت بقميص كتابك وهو بريء عنها وبقميص سنة نبيك وهو بعيد عنها، نسألك غيرتك على كتابك

---

(١) سمعت سيدي الأخ الحبيب علياً بن عبدالرحمن الجفري يقول: إنه حضر مجلساً ضمَّ سيدي الإمام الحبيب عبد القادر بن أحمد بن عبد الرحمن السقاف والحبيب أحمد مشهور الحداد، وقال الحبيب أحمد مشهور الحداد أنه لم يعثر على تفسير يشفيه لهذه الآية، فقال سيدي الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي كل شيءٍ حسنٍ مما تلتذّ به الأجسام والقلوب والأرواح والأسرار، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ كلُّ شيءٍ حسنٍ تلتذُّ به الأجسام أو القلوب أو الأرواح أو الأسرار. فقال سيدي الحبيب أحمد مشهور الحداد: هذا أعظم تفسيرٍ سمعته.

ولقد سمعت تفسيراً قريباً منه من فم سيدي الإمام عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ أثناء زيارة سيدي الإمام العارف بالله سبحانه وتعالى إبراهيم بن عمر بن عقيل بن يحيى نزيل تعز في سنة ١٤١١ هـ ينقله عن الإمام الحبيب عبدالباري بن شيخ العيدروس ، وهو قوله من الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وذلك حظ البدن فيها ومن الحسنة فيها أيضا مجالسة الإخوان في الله وهم إخوان الصفا وذلك لحظ الروح منها ومن الحسنة فيها أيضا المعرفة بالله وذلك حظ السر والحسنة في الآخرة كذلك منها ما هو حظ البدن مقابل لما هناك وهو الحور والقصور وغيره من نعيم الجنة ومنها ما هو حظ الروح وهو مجالسة في الجنة مقابل أيضا لما هناك ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] ومنها ما هو حظ السر وهو النظر إلى وجهه الكريم والتهيم فيه اهـ.

(٢) أي أنواع البدع التي حصلت للمسلمين اليوم.

وغيرتك على سنة سيد أحبابك وبمحبتك لكتابك وبمحبتك لأحب الأحباب، اقبل منا هذا الدعاء وارفع عنا هذا البلاء حتى ينجال عنا وعن الأمة في المشارق والمغارب، ولا تبلغ أعداء الدين مراداً فينا من قريب أو بعيد، يا من يسمع الدعاء هذا دعاءنا يا من يسمع النداء هذا نداءنا، اللهم افتح لنا أبواب فرج، وافتح الباب المرتج، وارفع أنواع الضيق والحرج، وتب علينا وعلى الأمة توبة نصوحا، تزكينا بها قلبا وجسما وروحا، حتى نتهيأ لنصرك، ورفع الآفات وتسلط الكفار عنا وعن إخواننا المسلمين، إلهنا ومولانا وخالقنا ومن يقتل في كل يوم ظلما، بآثار هذه الظلمات، نتوجه إليك أن تكشف الغم، وأن تحول أحوالهم إلى أحسن الحالات، اللهم تداركهم بغياث من عندك، فقد قصرت عنهم أيدي خلقك، ولا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، تداعت هذه الأمم على هذه الأمة كما تداعت الأكلة على قصعتها كما حدثنا به نبيك، اللهم ادفع عنا شر الكفار وعن المسلمين وادفع شر الفجار عنا وعن المسلمين، واجعلنا من خير الأخيار ومن المقيمين على منهج المختار، وأسعدنا أكمل السعادة واجعلنا من أهل الحسنى وزيادة يا أرحم الراحمين)).

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطاهرين وأصحابه حماة الدين ومن تبعهم بإحسان عدد كل معلوم لله والحمد لله بجميع محامده عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

◙ ◙ ◙

تقريظ الحبيب العلامة
سالم بن عبدالله بن عمر الشاطري

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رفع بالعلم أناساً وأذل بالجهل آخرين، شرع لنا في ديننا من العقائد الصحيحة ما يغنينا عن عقائد المغفلين، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، أمرنا باتّباعه واتّباع سنته في كل وقت وحين، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اطلعتُ على كتاب (الاستغاثة) تأليف السيد الفاضل المبارك إن شاء الله: موسى الكاظم بن جعفر بن محمد السقاف فتح الله عليه وملأ من الخير قلبه ويديه آمين، وقد قرأتُ أكثره وتصفحتُ باقيه فوجدته كتابا مفيدا في بابه أوضح فيه مذهب أهل السنة والجماعة والسلف الصالح عن موضوعي التوسل والاستغاثة بأدلةٍ وحِججٍ قويةٍ وهما موضوعان زلّت بسببهما أقدام الكثير من الناس ما بين تفريطٍ وإفراط فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.. ونسأل الله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتّباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله مشتبها علينا ونتبع الهوى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير إلى الله
سالم بن عبدالله بن عمر الشاطري
مدير رباط تريم / عفا الله عنه آمين
حرر بمدينة تريم حضرموت
بتاريخ ٢٥/١١/١٤٢٤هـ
الموافق ١٨/١/٢٠٠٤م

تقريظ الحبيب العلامة
علي المشهور بن محمد بن سالم بن حفيظ

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله المتفرد بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، وأصلي وأسلم على رسوله وحبيبه سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن نهج على سبيله، (وبعد) فقد قدم لي السيد النبيه الحريص على إيصال الفهم الصحيح لكل مؤمن يريد الحق ويتبع أهليه الآخذ في ما جمع الحق والإنصاف موسى الكاظم بن جعفر بن محمد السقاف رسالته في موضوع الاستغاثة لقد سرحت نظري فيها مليا فوجدتها حافلة في موضوعها تفيد – إن شاء الله – من تخبط في جهالته وأصابته فتن الأشرار إذا رعته عناية الملك الجبار، واسأل الله أن ينفع بها ويجعل لها القبول وتحوز كمال الرضا من قارئها وعين الرضا عن كل عيب كليلة. وفي الختام أسأل الله جل وعلا أن يُرينا الحق حقا ويرزقنا اتّباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله مشتبها علينا فنتبع الهوى يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وتابعيهم إلى يوم الدين، وعلينا معهم وفيهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

وكتبه عَجَلاً وخَجَلاً الفقير إلى الله
علي المشهور بن محمد بن سالم بن حفيظ
بتريم ٢٢ ذي القعدة الحرام سنة ١٤٢٤هـ
الموافق ١٤/يناير/٢٠٠٤م

تقريظ الحبيب العلامة
أبي بكر العدني بن علي المشهور

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فقد عرض عليَّ السيد الداعية موسى الكاظم بن السيد جعفر السقاف رسالته المسماة (تدقيق النظر في أصول التوسل والاستغاثة) وطلب مني تقريظ الرسالة وإبداء رأيي الشخصي فيها.

وبالطبع ليس لدي رأي شخصي متفرد، وإنما أنا طالب علم ارتبطت بمدرسة أبوية نبوية شرعية مسندة الأصول والفروع إلى ثوابتها الأولى من عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا فلست بملتزم بأي رأي منفصل عن سنده الأبوي الشرعي مهما كان شأنه في الحياة المعاصرة، والحياة المعاصرة - وهي مرحلة الغثاء المسيس - التي أخبر عنها صلى الله عليه وآله وسلم مرحلة واضحة الهوية والمخرجات بما ورد عنها في صحيح الأحاديث في الركن الرابع من أركان الدين، وهو العلم بعلامات الساعة[1] والركن الرابع يحتوي على تفاصيل جمة مجموعة فيما يسمى بـ(فقه التحولات) وفقه التحولات علم شرعي يبرز للأمة المحمدية تاريخ الديانات الشرعية وصراعها مع تاريخ الخيانات الوضعية، والقارئ لهذا الفقه الشرعي سيدرك بيقين ما نحن جميعاً نعانيه في مرحلتنا وما قبلها وما بعدها، ومن هم حملة الحق الشرعي وكيف عاشوا وماتوا، ومن هم حملة الإفك الوضعي وكيف عاشوا وماتوا، والقارئ لهذا الفقه سيتحقق من المشكلة التي تناولها المؤلف جزاه الله خيراً وأكثر من أمثاله.

(١) . راجع حديث جبريل.

إن مسألة التكفير والتشريك بالشبهات ليست جديدة، بل هي قديمة قدم المدرسة ذاتها، فالخوارج يكفرون الإمام علي في قضية عقائدية وهي مسألة الحكم لله، والأصل فيها (رفع المصاحف على الرماح) كخدعة أموية لقبول الحوار وكسب الوقت وليست لغرض العود إلى الحق والالتزام به.

ولما قبل الإمام بالحوار باعتباره يمثل الحق ويدافع عنه اجتهد الخوارج في مخالفته تحت مبرر الرفض للتحكيم، ورفض الخوارج بقبول الحوار مع من لا يملك حق الجلوس مع أهله - أي جيش معاوية - فجعلوا أنفسهم باجتهادهم البدعي بديلاً عن الجهتين: جهة البغاة من جيش الشام، وجهة الاتباع الملزمين إمامهم بقبول التحكيم وهم الشيعة.

ولم يلتزموا فوق هذا بصاحب الحق وحامله الإمام علي بن أبي طالب، بل طالبوه بالتوبة والرجوع عن موقفه العادل إلى موقفهم الفاسد، وانتهى الأمر كله بتحول رأي الخوارج إلى منهج سياسي واجتهاد عقائدي وتعليمي فرض نفسه في الواقع المضطرب بالسلاح، حتى أدى في نهاية الأمر إلى قتل الإمام علي بن أبي طالب لفتوى شرعية كان المعتقد منها تخليص الأمة من الخطأ، وليتهم حققوا مطلباً إيجابياً أو اكتسبوا مغنماً إيمانياً بتصوراتهم البدعية، ولكن هكذا يريد الشيطان فكانوا هم وكلاؤه باسم العقيدة والعلم الشرعي.

ولحق هؤلاء الخوارج أولئك الذين اعتمدوا قوة السلطة فنازعوا الأمة في قضية القول بخلق القرآن حتى صار عقيدة ولاء وبراء لم يقبل فيها حوار ولا مناقشة، بل حكم فيها رسمياً بفساد عقيدة المخالف حتى سقطت تلكم السلطة مع ركامها الفكري والعقائدي المبتور.

ونحن اليوم لسنا مفصولين عن تحولات التاريخ ووقفاته، فالتهمة المعاصرة التي تتناولها كتب وأجهزة وأتباع مدارس القبض والنقض لا ملجأ ولا منجى فيها إلا إلى الله، فهي على ذات الوتيرة السابقة في التاريخ، ولهذا

فموقفنا منها الثبات على الحق مع تصحيح الإفراط وإعادة ترتيب الركام المتنوع الذي شاب المدرسة المذهبية والصوفية ليعود إلى موقفه السديد من الاعتدال المشروع، كما نقف بحزم أمام التفريط المسيس لننقذ من خطره ما يمكن إنقاذه من المندفعين والمتفعين الذين لا يعلمون حقائق الأمر ولا يدركون حجم الخطورة التي تستثمرهم قوى الصراع فيها وهم لا يعلمون، ونفتح للجيل المخدوع باب من السماحة كي يمارسوا عقائدهم وعبادتهم باطمئنان، فالتوسل والاستشفاع والاستغاثة أمر قد أشبع الفصل فيه كلاً من الموافق والمعارض، ولن يتراجع كل من الطرفين عن موقفه باعتبار النظر في أصول العقائد وقواعد التأصيل فيه والذي نحتاج أن نطرحه بين الطرفين ..

إن المسألة تحتاج إلى صدق مع الله وأدب مع الأمة، وتخلص من عقدة التسييس للقضايا فهي علة الصراع عبر التاريخ كله، ومن تحققت فيه هذه الخصلة يمكن له أن يعذر الآخرين فيما ذهبوا إليه من جهة ومناقشة الأمر على بساط الأدب والوعي من جهة أخرى، ومع هذا يلتزم كل فريق في سلوكه وعاداته وعباداته ما يراه الحق بدلائله المجردة عن التسييس ومجرد الاستتباع للآخرين مع احترام أهل العلم الأثبات الذين خدموا الأمة وحفظوا الديانة وقَعَّدُوا أصول الشريعة وفروعها على هدي وإيمان ويجري الاختلاف مجراه الطبيعي من مناقشة العلماء وإثرائهم موضوعات الأخذ والعطاء الاستدلالي المشروع دون الحاجة لتحويل هذا الاختلاف إلى مشروع دعوة في المساجد والمنابر ضد المصلين فيما بينهم، فهنا يكمن الخطأ والخطر وهنا يقف الشيطان للتحريش بين المصلين.

إن الجيل الملتزم لقضية الاستشفاع والتوسل والاستغاثة بالله دون غيره لا يُلزم أن يتوسل بها دون ذلك ما دام القلب غير مطمئن إلى ما غيره قد اطمأن إليه ولكن دون أن يكفّر أو يشرك أو يصدر حكماً مماثلاً على من رآه مخالفا له؛ لأن إصدار الأحكام صناعة مسيسة يراد بها إشعال الفتنة بين المسلمين وقد

استثمرها النفعيون على مدى قرن وزيادة للتحريش بين المصلين في جزيرة العرب، وشواهد ذلك قائمة وماثلة للعيان، ولم ينجح دعاة التوحيد المشار إليه بتحقيق دولة التوحيد ولا منهج التوحيد الصحيح المتجرد من أثر الاستتباع للمشركين الأساسيين إن لم تكن بصماتهم - أي المشركين الأساسيون - هي الأكثر أثراً وتأثيراً في الصراع العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والتعليمي والتربوي والإعلامي والرياضي وهلم جراً في أكثر مجتمعات الصراع المفتعل حول هذه المسائل.

إذن فماذا تحقق لنا ولهم من هذه المشاريع التسويقية في ساحة العرض والطلب غير الاستتباع والانصياع للدجل والدجاجلة، وتحقيق ما أخبر عن وقوعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الغثاء والوهن وحب الدنيا وكراهية الموت وغيرها من العلامات التي لم يسلم منها متوسل ولا غير متوسل.

وكما نطالب غير المتوسل بعدم الالتزام بالتوسل والاستغاثة والاستشفاع ولو كان عند غيرهم في القيام بها أقوى الأدلة، فإنا نلزم المتوسل والمستغيث أن يلتزم حدود المشروع في هذه القضايا المتشابكة ولا ينزع بنفسه ولا بمجتمعه ومذهبه إلى الإفراط المشين والانحدار المهين في سراديب المعتقدات المشبوهة التي يقع فيها العوام والجهلة والمتخبطون، ولا يشتغل بانتقاد غيره فيما لا يؤمن بسلامته، وإنما يشغل نفسه بالنظر فيما يجمع بينه وبين غيره من أسباب السلامة والاجتماع.

لقد شهدت السنوات الماضية صراعاً خطيراً بين المصلين، والمصلون بريئون من هذا الصراع وآثاره، المصلون في حاجة إلى معالج سليم العقل والوعي والهدف يفصل بينهم فيما اشتبكوا فيه بفعل طرف سلبي آخر، ولكن الطرف الآخر حريص على الدفع بالمصلين إلى ساحة الصراع ليستثمرها لمصلحته، وهي بالنسبة إليه ما تسمى بالمصلحة العليا، والمصلحة العليا من هذا النوع هي مصلحة الشيطان ووكلاؤه.

ونحن نعتقد أن ما كتبه كاتب هذه الرسالة مفيد في موضوعه لأهله ومساعد غيرهم على معرفة تفاصيل الفقه العقدي لدى طائفة المتوسلين والمستغيثين والمستشفعين ممن أطلقت عليهم مدرسة الطرف الآخر بالقبورية أو القبوريين، وهو مسمى أثبتته مدرسة النقض والقبض وألصقته في جبين المسلمين عموماً وآل البيت والمذهبيين خصوصاً لدى قراءتها للواقع المشاهد وما فيه من النقائض.

وفي ذات الوقت أطلقت المدرسة الأبوية التقليدية على المخالفين والمنازعين لها هذا الشأن الخطير مسمى (المدرسة الربوية) لدى قراءتها للواقع المشاهد وما فيه من النقائض الدالة على علاقة المدرسة الربوية بالمخرجات الاقتصادي الكافرة وما تفرع عنها في الواقع المعاصر، فهنا أزمة اعتقاد وهناك أزمة اقتصاد، ولا مخرج من التهمتين وما تفرع عنهما من ولاء وبراء.

فـولاء الأزمة الاعتقادية منوط بالقبور والتوسل والاستغاثة بالأموات وما تفرع عنها من مسمى الإشراك السياسي وولاء أصحاب الأزمة الاقتصادية منوط بالربا والحرام والشبهة وما تفرع عنها من ولاء مع بيوت المال والأعمال والشراكات الاقتصادية الفاسدة مع أصحاب الشرك الأساسي، فالصوفية المتهمون مصيرهم مربوط في مخرجات المرحلة بالأموات والسلفية المتهمون مصيرهم مربوط بمخرجات الشركات والشراكات، ولن تقف معركة الفريقين قدر فواق.

فلا المدرسة الناقضة القابضة تملك حلاً غير ما لديها من مخرجات، ولا المدرسة القبورية الحالية تمتلك حلاً غير الدفاع عن التهمات وبصرف النظر عن موقفي من الفريقين فأنا بلا شك في أحد صفوفهم، ولكن كما أعتقد وأرجو أن حل المشكلة لن يتأتى إلا بما سبقت الإشارة إليه من الارتقاء عندنا فوق الإفراط والارتقاء عند غيرنا فوق التفريط لنعود إلى أدب النمط الأوسط ومعالجة الأمر بالحكمة والموعظة الحسنة ولا غير ذلك.

وأسأل الله أن يلهم الجميع الصواب ويحفظنا من مخالفة السنة والكتاب ويرزقنا حقيقة الآداب ويميتنا على التوحيد غير مبتدعين ولا مُفْرِطين ولا مُفَرِّطين، اللهم آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبوبكر بن علي المشهور
ذي الحجة ١٤٢٩هـ

◘ ◘ ◘

تقريظ السيد العلامة
عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله الملك الجواد الكريم ، رب الأرباب، مسبِّب الأسباب، العزيز التواب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جامع الخلائق ليوم الحساب، ونشهد أن سيدنا ونبينا وقرة أعيننا محمدًا عبده ورسوله ، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود في يوم المآب، اللهم صل وسلم على عبدك المصطفى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار في دربه وعلينا معهم وفيهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

أما بعد: فإنه مع وضوح الأدلة فيما يتعلق بجوانب التوسل والاستغاثة قد كثر الكلام من المنتسبين إلى هذا الدين والعلم بالأحكام ، وترتَّب على ذلك التباساتٌ وتلبيساتٌ فاحتاج الأمر إلى بيانٍ حسن ، ودقة في النظر، وإيضاحٍ للمَحجَّة، وإيرادٍ للحجة ، مع وجود الاتفاق للمتأمل المتبصِّر المنصف عند جميع أهل الملة بمذاهبها على تنزيه الحق تبارك وتعالى عن الشريك، وعلى وجوب إخلاص العبادة له تبارك وتعالى، ولكن ما تحمل عليه النفوس ويحمل عليه الشيطان يؤدي كثيرًا إلى التجاوزات والتجرءات وعدم ضبط الموازين فيما يُقال وفيما يُفعل وفيما يُنظر به إلى الآخرين.. وقد خدم جانبًا مهما من الواجب في هذا المجال السيد موسى الكاظم بن جعفر بن محمد السقاف في هذا الرسالة القيمة في تبيين معاني التوسل والاستغاثة وأصولها وأدلتها؛ فشكر الله سعيه وبارك له فيما جمع وكتب، وكتب به النفع العميم ورزقنا وإياه الإخلاص لوجهه الكريم وبالله التوفيق .

قاله / عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
ابن الشيخ أبي بكر بن سالم
تريم - حضرموت - اليمن
يوم الخميس ١٨ شعبان ١٤٢٥هـ
الموافق ٢ أكتوبر ٢٠٠٤م

محتوى الكتاب

تصويبات الكتاب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٧	١٤	وأنه	أنه
٣١	٣	أن لينفعك	أن ينفعك
٣٥	١	أن الدعاء	إن الدعاء
٤٧	١٨	أبد	أبداً
٤٨	١٣	موجود	موجودة
٤٨	الأخير	والوسيلة	(تحذف)
٥٨	٢٠	اللهم	(تحذف)

تم بحمد الله

بين يدي الكتاب

* إن للمسلمين حرمة عظمى عند الله سبحانه وتعالى.

* وقد علمنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم حرمة المؤمن ومنزلته عند الله حياً وميتاً.

* ومما لا خلاف فيه بين المسلمين قاطبة زيارة القبور للتذكر والإعتبار وغير ذلك.

* أما التوسّل والإستغاثة فالخلاف فيهما شهير في هذا الزمان.

* وبين هذه السطور يتبيّن الصواب إن شاء الله تعالى.

دار الفقيه للنشر والتوزيع